جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ديالى / كلية العلوم الإسلامية

قسم علوم القرآن

مـــــــادة عـلـوم الـقـرآن

المرحلـة الـثـانـيـة: الكورس الثاني

د: منشد فالح وادي

م.م عفراء حكمت حميد

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥ م

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وفي اللغة العربية صيغ عامة تشمل جماعة المخاطبين، وفيها ألفاظ خاصة، وأحيانًا يكون اللفظ عامًّا ويراد به الخصوص والعكس كذلك. وفي القرآن الكريم ألفاظ تحت هذا النحو، ففيه صيغ تفيد العموم ويراد بها العموم، وألفاظ تفيد الخصوص ويراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد العموم إلا أنه يراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد الخصوص إلا أنه يراد بها العموم، والقرائن توضح ذلك وتزيل اللبس، ويبقى بعد ذلك ألفاظ هي موضع خلاف بين العلماء تؤثر في استنباط بعض الأحكام.

وهذا يظهر مكانه علم "العام والخاص" وأثره في استنباط الأحكام؛ ولذا نجد بسط مباحثه في كتب أصول الفقه خاصة، ونظرًا لتعلق الاستنباط بآيات القرآن فقد درسه أيضًا أرباب العلوم القرآنية، وأفردوه بمباحث خاصة في بطون مؤلفاتهم، وسأعرض لبعض قضاياه المتعلقة بالقرآن، معرضًا عن المباحث الأصولية الخاصة.

العام:

العام لغة:

العَمَمُ: عظم الخلق في الناس وغيرهم، والعمم: الجسم التام، ... وأمر عممٌ: تام عام.. وعمهم الأمر يعمهم عمومًا: شملهم، يقال: عمهم بالعطية، والعامة: خلاف الخاصة .

وفي الاصطلاح:

هو: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد، من غير حصر .

فقولنا: "الرجال" يستغرق جميع ما يصلح له.

ولا يدخل فيه النكرة مثل "رجل"؛ لأنه يصلح لكل واحد من الرجال، لكنه لا يستغرقهم.

ولا التثنية ولا الجمع، لأن لفظ "رجلان" و"رجال" يصلحان لكل اثنين وثلاثة، ولا يفيدان الاستغراق.

وقولنا: بحسب وضع واحد؛ للاحتراز من اللفظ المشترك، أو الذي له حقيقة ومجاز، فإن عمومه لا يقتضي أن يتناول مفهوميه معًا.

فإذا قلت: رأيت كل العيون.

فإن في لفظ العيون اشتراك حيث تشمل:

١- عيون الماء الجارية.

٢- العيون المبصرة.. وغير ذلك.

وأنت لا تريد كل هذه المعاني، وإنما تريد أحدها. فلا يقتضي العموم أن يشمل كل معاني اللفظ؛ بل بحسب وضع أو معنى واحد من معانيه المختلفة. وقولنا: "من غير حصر" يخرج أسماء الأعداد فهي تدل على كثرة معينة محدودة، فإن كانت الكثرة كثرة معينة بحيث لا يتناول ما بعدها. فهو اسم العدد، وإن لم تكن الكثرة كثرة معينة فهو العام.

صيغ العموم:

وللعموم صيغ كثيرة تدل عليه، ذكر منها القرافي مائتين وخمسين صيغة ، ومن هذه الصيغ:

١- كل: وهي أقوى صيغ العموم، وتدل عليه؛ سواء كانت للتأسيس، مثل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} ، ومثل: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ} ، أو للتأكيد مثل: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} ، ومثل: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} ، ومثلها جميع: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} وديارًا: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارا}.

٢- الأسماء الموصولة: مثل: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} {وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا} و {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَس} {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاس} {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ} .

٣- أسماء الشرط مثل: {وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّه} {أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} .

٤- أسماء الاستفهام: كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَه} {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه} ومن تفيد العموم إذا كانت شرطية أو استفهامية، أما إذا كانت موصولة مثل {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} فإنها قد تكون للعموم وقد تكون للخصوص، والقرائن هي التي تفيد العموم أو الخصوص .

٥- المعرف بأل التي ليست للعهد وإنما للاستغراق؛ سواء كان جمعًا، مثل: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} ، أو مفردًا مثل: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ، ومثل: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} ، أو اسم جنس؛ وهو الذي لا واحد له من لفظه مثل الناس، الحيوان، الماء، التراب، فالناس في قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} تفيد العموم، أو مثنى كقوله تعالى: {وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ} ؛ أي كل أختين لا يجوز الجمع بينهما. وعلامة "أل" المستغرقة للجنس. أن يصح حلول "كل" محلها، وأن يصح الاستثناء من عمومها.

٦- كل ما أضيف إلى معرفة؛ سواء كان مفردا، أو مثنى، أو جمعا، أو اسم جنس مثل {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} وفي الاستثناء هنا إشارة إلى عموم اللفظ .

٧- النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط ، مثالها في سياق النفي: قوله تعالى: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} ومثالها في النهي: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً} فإن "أحد" نكرة بعد نهي فتفيد العموم، ومثل {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا} ، ومثالها في الشرط : {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ} .

أما إذا كانت النكرة في سياق الإثبات فلا تفيد العموم، فإذا قلت: ما رأيت رجلًا فهو نفي يفيد العموم، وإذا قلت: رأيت رجلًا فهو إثبات لا يفيد العموم .

أقسام العام:

وأقسام العام ثلاثة:

١- العام الذي لا يدخله التخصيص:

وهو العام الذي لا يمكن تخصيصه، وهذا النوع قليل جدًا؛ إذ الأصل في العموم أن يقبل التخصيص ، ومع أن البلقيني قال عن هذا النوع: "ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص" إلا أن الزركشي قال: "وهو كثير في القرآن" ، وقد جمع السيوطي بينهما بأن مراد البلقيني أنه عزيز في الأحكام الفرعية، ومراد الزركشي أنه كثير في غير الأحكام الفرعية .

ومثال هذا النوع قوله تعالى : {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فالعموم هنا لا يمكن تخصيصه .

٢- العام الذي يدخله التخصيص:

وهو الذي يمكن تخصيصه، ولعل هذا النوع هو أشهر أنواع العموم، والذي ينصرف إليه الذهن عند إطلاق العموم، وهو ميدان الخلاف بين العلماء في تخصيصه أو بقائه على عمومه ، وأمثلته في القرآن كثيرة؛ منها: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} فلفظ "الناس" عام خصص بقوله: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} ، ومنها قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} فلفظ "أحدكم" يفيد العموم وخصص بقوله: {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا} ، ومنها قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} ، فلفظ "المطلقات" عام يشمل الحامل وغير الحامل وخصص بقوله تعالى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} وغير ذلك من الأمثلة .

٣- العام المراد به الخصوص :

وهو ما دل لفظه على العموم ودلت القرينة على الخصوص ، كقوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ} والمراد بالناس عبد الله بن سلام فالآية دعوة لليهود إلى أن يؤمنوا كما آمن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- وقد كان يهوديًا، ثم إن الناس لم يؤمنوا كلهم، فدلت القرينة على وجوب حمله على فئة منهم ، ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} قال الزركشي: "وعمومه يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين جميعًا، والمراد بعضهم؛ لأن القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأول نعيم بن مسعود والثاني: أبو سفيان وأصحابه"، قال الفارسي: ومما يقوي أن المراد بالناس في قوله: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} واحد، قوله: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} فوقعت الإشارة بقوله : {ذَلِكُمُ} إلى واحد بعينه، ولو كان المعني به جمعًا لكان إنما أولئكم الشياطين ، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ" ، وإنما وصف نعيم بأنه الناس؛ لقيامه مقام كثير في تثبيطه المؤمنين عن ملاقاة أبي سفيان ، ومن أمثلته قوله تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} والمراد بالناس هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن

أمثلته {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} والمراد إبراهيم عليه السلام أو العرب من غير قريش ، ومنها: {فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام.

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص :

وبين العام المراد به الخصوص والعام الذي يمكن أن يدخله التخصيص فروق منها :

١- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد ، ويدرك ذلك من أول وهلة ، وأما العام الذي يدخله التخصيص. فأريد به العموم في أول الأمر، وشموله لجميع أفراده، فلفظ "الناس" في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} الآية يدرك السامع لأول وهلة خصوصها، وأنه لا يمكن أن يراد بها العموم لامتناع ذلك، أما لفظة "الناس" في قوله تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} يدرك السامع أن المراد بها جميع الناس، ولا يحوله عن هذا العموم إلا قوله: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } .

٢- الأول مجاز قطعًا؛ لنقل اللفظ عن موضعه الأصلي وهو العموم، واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فاستعمل اللفظ بمعناه الحقيقي، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة، ونقله الجويني عن جميع الفقهاء .

٣- أن قرينة الأول عقلية لا تنفك عنه ، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه.

٤- أن الأول يصح أن يراد به واحدًا اتفاقًا، مثل: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يعني إبراهيم عليه السلام ، أما الثاني ففي تخصيص عمومه بحيث لا يراد به إلا واحد بعد العموم خلاف .

الخاص :

الخاص لغة: يقال : خصه بالشيء يخصه خصًا.. أفرده به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد .

وفي الاصطلاح ، الخاص : هو اللفظ الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

أما التخصيص فهو: قصر العام على بعض أفراده .

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه ، والمراد من قولنا: "قصر العام" قصر حكمه ، وإن بقي لفظه على عمومه ، فيكون العموم باللفظ لا بالحكم ، وبذلك يخرج العام الذي يراد به الخصوص ، فإن ذلك قصر إرادة لفظ العام لا قصر حكمه ،

أمثلته {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} والمراد إبراهيم عليه السلام أو العرب من غير قريش ، ومنها: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام.

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص :

وبين العام المراد به الخصوص والعام الذي يمكن أن يدخله التخصيص فروق منها :

١- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد ، ويدرك ذلك من أول وهلة ، وأما العام الذي يدخله التخصيص. فأريد به العموم في أول الأمر، وشموله لجميع أفراده، فلفظ "الناس" في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} الآية يدرك السامع لأول وهلة خصوصها، وأنه لا يمكن أن يراد بها العموم لامتناع ذلك، أما لفظة "الناس" في قوله تعالى : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} يدرك السامع أن المراد بها جميع الناس، ولا يحوله عن هذا العموم إلا قوله: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } .

٢- الأول مجاز قطعًا؛ لنقل اللفظ عن موضعه الأصلي وهو العموم، واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فاستعمل اللفظ بمعناه الحقيقي، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة، ونقله الجويني عن جميع الفقهاء .

٣- أن قرينة الأول عقلية لا تنفك عنه ، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه.

٤- أن الأول يصح أن يراد به واحدًا اتفاقًا، مثل: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} يعني إبراهيم عليه السلام ، أما الثاني ففي تخصيص عمومه بحيث لا يراد به إلا واحد بعد العموم خلاف .

الخاص :

الخاص لغة: يقال : خصه بالشيء يخصه خصًا.. أفرده به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد .

وفي الاصطلاح ، الخاص : هو اللفظ الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

أما التخصيص فهو: قصر العام على بعض أفراده .

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه ، والمراد من قولنا: "قصر العام" قصر حكمه ، وإن بقي لفظه على عمومه ، فيكون العموم باللفظ لا بالحكم ، وبذلك يخرج العام الذي يراد به الخصوص ، فإن ذلك قصر إرادة لفظ العام لا قصر حكمه ،

ومثال التخصيص قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ} فلفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة ، لكن حكمه مخصوص بقوله تعالى: {وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} .

حكم تخصيص العموم:

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: اتفق أهل العلم سلفًا وخلفًا على أن التخصيص للعمومات جائز، ولم يخالف في ذلك أحد ممن يعتد به، وهو معلوم من هذه الشريعة المطهرة، لا يخفى على من له أدنى تمسك بها".

وهو جائز مطلقًا، سواء كان أمرًا مثل: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} ، أو نهيًا مثل : {وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} ، أو خبرًا مثل: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} .

أقسام المخصص:

والمخصص ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المخصص المتصل.

وهو خمسة أنوع هي:

١- الاستثناء:

كقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} وكقوله سبحانه: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}.

٢- الصفة:

والمراد بها الصفة المعنوية على ما حققه علماء البيان، لا مجرد النعت المذكور في علم النحو، قال الجويني: الوصف عند أهل اللغة معناه التخصيص، وقال المازري: ولا خلاف في اتصال التوابع، وهي النعت والتوكيد والعطف والبدل ، وعلى هذا فالمراد بالصفة هنا كل ما أشعر بمعنى يتصف به أفراد العام؛ سواء كان الوصف نعتًا، أو عطف بيان، أو حالًا؛ وسواء كان مفردًا، أو جملة، أو شبه جملة ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} فلفظ "فتياتكم" عام يشمل المؤمنات والكافرات، لكنه خصص بوصف "المؤمنات" ، ومن الأمثلة قوله تعالى:

{وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} فلفظ "نِسَائِكُمُ" يشمل جميع الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن ولكن خصص العموم بوصف "اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ".

٣- الشرط :

ومن أمثلته قوله تعالى: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ} فلفظ "أزواجكم" عام يشمل ذات الولد وغيرها، وخصص بالشرط "إن لم يكن لهن ولد" فالزوجة التي يرث الزوج نصف مالها. هي غير ذات الولد ، ومن الأمثلة قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} فقوله "أحدكم" عام يوجب الوصية على من ترك مالا وغيره، وخصص بالشرط "إن ترك خيرًا"، فأصبحت الوصية واجبة على من ترك مالًا دون الآخر ، ومن ذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} فالاسم الموصول "الذين" يفيد العموم وخصص بشرط إن علمتم فيهم خيرا".

٤- الغاية:

والمراد بها: نهاية الشيء المقتضية لثبوت الحكم قبلها، وانتفائه بعدها ولها لفظان: "حتى" و"إلى" ، ومثال الأول: {وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} ، ومثال الثاني: {وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} .

٥- بدل البعض من الكل:

وذلك كقوله سبحانه: {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ} فقوله: "عموا وصموا" يفيد العموم وخصص ببدل البعض "كثير منهم" ، وكقوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} فلفظ "الناس" يفيد العموم وخص بالبدل "من استطاع إليه سبيلا" بدل بعض من كل، هذه أنواع المخصص المتصل.

القسم الثاني: القسم المنفصل : وهو أن يكون المخصص في موضع آخر غير متصل باللفظ العام اتصالًا لفظيًّ .

وهو أنوع منها:

١- التخصيص بآية:

فقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ} عام يشمل كل مطلقة، إلا أنه خص الحوامل في قوله تعالى: {وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} كما خص الآيسات من الحيض: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ} وخص غير المدخول بها قال تعالى: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ}.

وقوله تعالى: {وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ} يشمل كل مشركة كتابية كانت أو غير كتابية، وجاء التخصيص في قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} فخص الكتابية من المشركات بجواز الزواج منها.

٢- التخصيص بالسنة قولًا كان أو فعلًا:

فقوله تعالى بعد أن عدد المحرمات من النساء: {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ}. مخصوص بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها" حيث خص أربع نساء وهن عمة الزوجة وخالتها، وابنة أخيها، وابنة أختها.

وقوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ} عام يدل على أن جميع الأولاد يرثون من آبائهم، لكنه مخصوص بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم" وبقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يرث القاتل شيئًا" ، وبما رواه أبو بكر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "لا نورث، ما تركناه صدقة" فخرج أولاد الأنبياء فإنهم لا يرثون.

وقوله تعالى في المطلقة البائن: {حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} وهذا عام في العقد والوطء، وخصه قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- لامرأة رفاعة: "لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك".

وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} عام يشمل المحصن وغير المحصن وتواتر عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه رجم المحصن، وهو فعل.

٣- التخصيص بالإجماع:

ومذهب جمهور العلماء أن الإجماع من مخصصات العموم المنفصلة، وهناك ما يرى أن المخصص هو دليل الإجماع وليس الإجماع نفسه، ومن الأمثلة قوله تعالى:

{إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} ٧ وهو عام يشمل الحر والعبد، والذكر والأنثى، وأجمعوا على أنه لا جمعة على عبد ولا امرأة وكقوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ} فهو عام يشمل كل الأولاد الأحرار والأرقاء، وخص الرقيق بالإجماع، لأن الرق مانع من الإرث.

٤- التخصيص بالقياس:

وذلك في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} فهو عام يشمل كل زان؛ حرًا أو عبدًا، وكل زانية حرة أو أمة، لكن الأمة خصصت بآية أخرى هي قوله تعالى: {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ} ولم يرد في العبد نص، فقاسه العلماء على الأمة بجامع الرق في كل، فيكون حكمه نصف ما على الأحرار من الرجال.

وهناك أيضًا أنواع من المخصصات المنفصلة؛ كالتخصيص بالعقل، وبالحسن، وبالعادة، وقرائن الأحوال، وبالمفهوم، وقول الصحابي، وبالسياق، وبقضايا الأعيان .

حكم تخصيص السنة بالقرآن:

إذا كان القرآن الكريم يخصص بالسنة، فهل تخصص السنة بالقرآن؟

الجواب: اختلف العلماء في ذلك وجمهور أهل العلم على جوازه٤، وعد السيوطي أمثلة ذلك من العزيز يعني القليل أو النادر، ثم ذكر أمثلة ذلك :

كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" فإنه مخصوص بقوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} ونهي الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن الصلاة في الأوقات المكروهة عام يشمل النوافل وقضاء الفرائض وهو مخصوص بقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى} والمحافظة على الصلوات تقتضي قضاء الفوائت في كل وقت حتى أوقات النهي.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما أبين من حي فهو ميت" ٤ عام في تحريم كل ما يقطع من البهيمة وهي حية وخصصه قوله تعالى: {وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} ،وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي" عام يشمل الأغنياء والأقوياء، وهو مخصوص بقوله تعالى: {وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا} ؛ حيث يحل لهم الأخذ من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء وأقوياء. ،

وقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" عام مخصوص بقوله تعالى: {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي}.

عموم الخطاب وخصوصه

الخطاب الخاص بالرسول صلى الله عليه وسلم

عموم الخطاب وخصوصه: وتحته مسائل:

الأولى: الخطاب الخاص بالرسول صلى الله عليه وسلم هل يشمل الأمة أم لا؟

كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} .

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشمل الأمة، لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عرفًا إلا ما دل الدليل على أنه من خواصه؛ كقوله تعالى: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} فلو كان الخطاب الخاص بالرسول –صلى الله عليه وسلم– لا يشمل الأمة لما احتاج إلى التخصيص بقوله "خالصة لك".

الثاني: قول الأصوليين: أنه لا يشمل الأمة، وذلك لخصوص اللفظ، وإن شملهم فبدليل آخر، لا بمجرد النص المذكور .

الخطاب العام بلفظ يا أيها الناس هل يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم :

المسألة الثانية: الخطاب العام بلفظ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ويَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هل يشمل الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك أقوال:

الأول: أنه يشمل الرسول –صلى الله عليه وسلم– لعموم الصيغة، وعليه الأكثرون، واختاره الغزالي والآمدي وابن الحاجب، والرازي، وابن قدامة، وأبو يعلى وأبو الخطاب الحنبلي.

الثاني: أنه لا يشمله؛ لما له من الخصائص دون الأمة، وهو قول الشيرازي.

الثالث: فيه تفصيل: إن كان الخطاب موجهًا لأمته، مثل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} الآية فلا يدخل. قال بعضهم: بلا خلاف ، وإن كان الخطاب بلفظ يشمل

الرسول -صلى الله عليه وسلم- نحو: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} و {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} و {يَا عِبَادِيَ} فإنه يشمله.

الرابع: إن سبق الخطاب بلفظ "قل" لم يشمله؛ كقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وإلا شمله وهو قول الصيرفي والحليمي .

الخطاب العام يا أيها الناس هل يشمل الكفار :

المسألة الثالثة: الخطاب العام بلفظ " يَا أَيُّهَا النَّاسُ" هل يشمل الكفار أم لا؟

وذلك نحو قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}

وللعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشملهم لعموم الصيغة وهم من الناس. وهو قول الجمهور .

الثاني: أنه لا يشملهم لعدم تكليفهم بالفروع.

الخطاب العام بلفظ يا أيها الذين آمنوا هل يشمل الكفار :

المسألة الرابعة:

الخطاب العام بلفظ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ، مثل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} هل يشمل الكافر أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه لا يشمل الكفار؛ لأنهم غير مخاطبين بالفروع.

الثاني: أنه يشملهم لعموم التكليف بهذه الأمور واختصاص المؤمنين بالخطاب للتشريف. وقد ثبت تحريم الربا في حق أهل الذمة. قال الزركشي: وفيه نظر، والخلاف يرجع إلى أن الكفار هل هم مخاطبون بالفروع أم لا؟

وهل يشمل العبد أم لا :

المسألة الخامسة: وهل يشمل الخطاب السابق العبد أم لا؟

وفيه أيضا قولان:

الأول: أنه لا يشمله لصرف منافعه إلى سيده.

الثاني: أنه يشمله لعموم اللفظ، وهو الصحيح، وخروجه في بعض الأحكام إنما هو بأدلة أخرى .

صيغة الجمع المذكر هل تشمل النساء :

المسألة السادسة: صيغة الجمع المذكر التي تفيد العموم هل تشمل النساء أم لا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

١- إن كان الجمع يتناول الذكور والإناث لغة ووصفًا مثل "الناس" فهذا يشمل الإناث بالاتفاق.

٢- إن كان الجمع بلفظ لا يتبين فيه التذكير والتأنيث؛ مثل أدوات الشرط؛ كقوله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} فإنه يشمل النساء باتفاق.

٣- إذا كان الجمع خاصًا بالذكور مثل لفظ "الرجال"، فلا يشمل النساء باتفاق.

٤- إذا كان الجمع خاصًا بالإناث مثل "النساء" و "بنات" فلا يشمل الرجال باتفاق.

٥- إذا كان الجمع بلفظ ظهرت فيه علامة التذكير مثل "المؤمنون" "الصابرون" "المسلمون" أو ضمير الجمع المذكر مثل: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} ففيه خلاف: فقيل: يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الحنفية والحنابلة وبعض المالكية والشافعية، واستدلوا بأنه متى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، ولذلك لو قال لمن بحضرته من الرجال والنساء: قوموا واقعدوا تناول جميعهم، ولو قال: قوموا وقمن واقعدوا واقعدن لعد تطويلًا ولُكْنَةً. وبينه قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} ، وكان ذلك خطابًا لآدم وحواء وإبليس، فلو كانت النساء لا يدخلن لقيل لآدم وإبليس: اهبطا، ولحواء: اهبطي، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، مثل: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} و {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} ٤ وغير ذلك، والنساء يدخلن في جملته بالإجماع .

وقيل: لا يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الشافعية وأكثر الفقهاء والمتكلمين، واستدلوا بأنه ذكر المسلمات بلفظ متميز، فما يذكر بلفظ المسلمين لا يدخلن فيه إلا بدليل.

المجمَل والمبيِّن :

في القرآن والسُنَّة نصوص لا تحتمل إلّا وجهًا واحدًا من المعاني، وفيه نصوص تحتمل أكثر من معنى، إلّا أن هناك دليلًا يرجِّح معنًى منها، وهو ما يُسَمَّى في

عُرْفِ الأصوليين بالظاهر، كما يُسَمَّى الأول بالنص ، وفي القرآن والسُّنَّة نصوص مجمَلَة بيَّنَتْها نصوص أخرى، فأزالت إبهامها، ووضَّحت المراد منها .

تعريف المجمَل والمبَيَّن:

"المجمَل في عُرْفِ الفقهاء: ما أفاد شيئًا من جملة أشياء، هو متعيِّنٌ في نفسه، واللفظ لا يعينه". كقوله تعالى: {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} . فلفظ {أَقِيمُوا} يفيد وجوب فعل متعيِّن في نفسه، غير متعيِّن بحسب اللفظ، لهذا احتاج إلى مبيِّنٍ يبينه.

"والمبيِّن هو: ما يفرِّق بين الشيء وما يشاكله، فهو دلالة على المعنى المراد على سبيل البَسْطِ والتفصيل.

ويعرفه الفقهاء بأنه الذي دلَّ على المراد بخطاب لا يستقلّ -بنفسه- في الدلالة على المراد".

فالمجمَل هو المبهَم الذي لا يتَّضِحُ المراد منه إلّا بقرينة شرعية تزيل إبهامه وتوضِّحُ المراد منه.

فهو كما قال السرخسي : "لفظ لا يُفْهَمُ المراد منه إلّا باستفسار من المجمَل، وبيانٍ من جهته يُعْرَفُ به المراد".

فهو لفظ خفي المراد منه بحيث لا يدرك إلا ببيان من المتكلم به؛ إذ لا قرينة تدل على معناه الذي قصده المتكلم.

فسبب الخفاء في المجمل لفظي لا عارضي، أي أن اللفظ المجمل لا يدل بصيغته على المراد منه، ولا توجد قرائن لفظية أو حالية تبينه، بل لا بد من الرجوع إلى الشارع نفسه لمعرفة المراد من اللفظ".

وفيما يلي ذكر بعض الأسباب التي يكون بها اللفظ مجملًا يحتاج إلى بيان من قبل الشارع الحكيم.

أسباب الإجمال:

وقد عرف الآمدي المجمل بتعريف رأي أنه الحق، فقال: "المجمل هو ما له دلالة على أحد أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه".

وهو لا يبعد كثيرًا عن التعريف السابق.

ثم ذكر بعد شرح التعريف الأسباب التي تؤدي إلى الإجمال، فقال: "وقد يكون ذلك في لفظ مفرد مشترك عند القائلين بامتناع تعميمه، وذلك إما بين مختلفين، كالعين للذهب والشمس، والمختار للفاعل والمفعول، أو ضدين كالقروء للطهر والحيض. وقد يكون في لفظ مركب، كقوله تعالى: {أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} .

فإن هذه مترددة بين الزوج والولي.

وقد يكون ذلك بسبب التردد في عود الضمير إلى ما تقدمه، كقولك: كل ما علمه الفقيه فهو كما علمه.

فإن الضمير في "هو" متردد بين العود إلى الفقيه، وإلى معلوم الفقيه، والمعنى يكون مختلفًا، حتى إنه إذا قيل بعوده إلى الفقيه كان معناه: فالفقيه كمعلومه، وإن عاد إلى معلومه، كان معناه: فمعلومه على الوجه الذي علم.

وقد يكون ذلك بسبب الوقف والابتداء ، كما في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} ، فالواو في قوله: {وَالرَّاسِخُونَ} مترددة بين العطف والابتداء، والمعنى يكون مختلفًا.

وقد يكون ذلك بسبب تردد الصفة، وذلك كما لو كان زيد طبيبًا غير ماهر في الطب، وهو ماهر في غيره، فقلت: "زيد طبيب ماهر"، فإن قولك: "ماهر"، متردد أن يراد به كونه ماهرًا في الطبِّ، فيكون كاذبًا، وبين أن يراد به غيره فيكون صادقًا.

وقد يكون ذلك بسبب تردد اللفظ بين مجازاته المتعددة عند تعذُّر حمله على حقيقته.

وقد يكون بسبب تخصيص العموم بصور مجهولة، أو بصفة مجهولة، كقوله تعالى: {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ} .

فإن تقييد الحلِّ بالإحصان، مع الجهل بما هو الإحصان يوجب الإجمال فيما أُحِلَّ.

أو باستثناء مجهول كقوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} .

فإنه مهما كان المستثنى مجمَلًا فالمستثنى منه كذلك، وكذلك الكلام في تقييد المطلق.

أقسام المجمَل:

ينقسم المجمَل إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان اللفظ فيه محتمِلًا لمعانٍ كثيرة، ولم يكن حمله على بعضها أَوْلَى من الباقي.

الثاني: ما يُحْكَمُ عليه بالإجمال -حال كونه مستعملًا في بعض موضوعه- فهو: كالعام المخصوص بصفة مجمَلة، أو استثناء مجمَل، أو بدليل منفصَل مجهول.

مثال الصفة قوله تعالى: {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ} فإنه تعالى لو اقتصر على ذلك لم يفتقر فيه إلى بيان، فلمَّا قيَّده بقوله: {مُحْصِنِينَ} ، ولم ندر ما الإحصان، لم نعرف ما أبيح لنا ، ومثال الاستثناء قوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} ومثال الدليل المنفصل المجهول: كما إذا قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- في قوله تعالى: {اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} -المراد بعضهم لا كلهم.

الثالث: "ما يُحْكَمُ عليه بالإجمال، حال كونه مستعمَلًا لا في موضوعه، ولا في بعض موضوعه، فهو ضربان:

أحدهما: الأسماء الشرعية.

والآخر: غيرها.

مثال الأول: كما إذا أمرنا الشرع بالصلاة -ونحن لا نعلم انتقال هذا الاسم إلى هذه الأفعال- احتجنا فيه إلى بيان.

والثاني: الأسماء التي دلَّت الأدلة على أنه لا يجوز حملها على حقائقها، وليس بعض مجازاتها أولى من بعض -بحسب اللفظ- فلا بُدَّ من البيان".

أقسام المبيَّن:

المبيِّن -بتشديد الياء وكسرها- هو كما عرفت: ما يفرِّق بين الشيء وما يشاكله، ويدل على المراد بخطاب لا يستقل -بنفسه- في الدلالة على المراد.

وقد قسَّمه الإمام الرازي إلى ثلاثة أقسام:

الأول: بيان بالقول، وهو ظاهر.

والثاني: بيان بالفعل، بأن يرد اللفظ في القرآن، أو في السُّنَّة محتملًا لعدة معانٍ، فيعلم من كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أحد المعاني هو المراد مستدِلًّا على ذلك بفعله -صلى الله عليه وسلم، ولا يُعْلَمُ كَوْنُ الفعل بيانًا للمجمل إلَّا بأحد أمور ثلاثة:

أ- أن يعلم ذلك بالضرورة من قصده.

ب- أن يعلم بالدليل اللفظي وهو أن يقول: هذا الفعل بيان لهذا المجمَل، أو يقول أقوالًا يلزم من مجموعها ذلك.

ج- أن يعلم ذلك بالدليل العقلي، وذلك أن يذكر المجمَل وقت الحاجة إلى العمل به، ثم يفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فعلًا يصلح أن يكون بيانًا له، ولا يفعل شيئًا آخر، فيُعْلَم أن ذلك الفعل بيان للمجمَل، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

الثالث من أنواع المبين: الترك ، قال الإمام الرازي: اعلم أن الفعل يبيِّن الصفة، ولا يدل على وجوبها، وترك الفعل يبيِّن نفي وجوبه، وذلك على أربعة أضرب:

أحدها: أن يقوم من الركعة الثانية إلى الثالثة، ويمض على صلاته، فيُعْلَم أن هذا التشهد ليس بشرط في صحة الصلاة، وإلّا لم تصح مع عدم شرط الصحة، ويدل على أنه ليس بواجب أنه -صلى الله عليه وسلم- لا يجوز أن يتعهّد ترك الواجب.

وثانيها: أن يسكت عن بيان حكم الحادثة، فيُعْلَم أنه ليس فيها حكم شرعي.

وثالثها: أن يكون ظاهر الخطاب متناولًا له ولأمته على سواء، فإذا ترك الفعل: دلَّ على أنه كان مخصوصًا من الخطاب، ولم يلزمه ما لزم أمته.

ورابعها: أن يتركه بعد فعله إياه، فيُعْلَم أنه قد نُسِخَ عنه ، ثم ينظر، فإن كان حكم الأمة حكمه نُسِخَ عنهم أيضًا، وإلّا كان حكمهم بخلاف حكمه -والله أعلم" .

حكم المجمَل:

ينبغي التوقُّف في العمل بالمجمَل إلّا إذا ورد من الشارع ما يزيل إجماله ويكشف معناه ، وقد وردت في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة ألفاظ كثيرة مجملة في مواضع، مبينة في مواضع أخرى بيانًا وافيًا.

ووردت ألفاظ أخرى مجملة مبينة بعض البيان، فكانت هذه الألفاظ من قبيل المشْكَل الذي يحتاج إلى نظر وتأمُّل، لإزالة إشكاله ومعرفة المقصود منه.

ومن النادر جدًّا أن تجد ألفاظًا في القرآن الكريم غير واضحة الدلالة على المعنى المراد على وجه من الوجوه المعقولة، بل ذلك مفقود فيه؛ لأن القرآن الكريم قد نزل هداية للخلق، ومنهجًا للحياة، فجاء من أجل ذلك مبينًا في معانيه ومراميه.

وقد أمرنا الله بتدبُّر آياته، فكان مقتضى ذلك الأمر أن تكون معانيه في مستوى إدراكنا على وجه مقبول شرعًا وعقلًا، حتى الأشياء التي اختص الله بعلمها لم يخف الله -جل شأنه- عنا دلالتها على المعنى الذي يمكننا تصوره، على نحو يناسب عقولنا، كما تقدَّمَت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن تعريف المحكَم والمتشابِه.

المطلق والمقيد:

جاءت بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقة غير مقيدة بشرط أو وصف أو غير ذلك. وجاء بعضها مقيدًا بوصف أو شرط أو غيرهما. والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه، إلا إذا صح الدليل على تقييده؛ لأن الإطلاق لحكمة كما أن التقييد لحكمة، وفي كل منها رعاية لمصلحة العباد في الدنيا والآخرة.

والدليل على تقييد المطلق أحيانًا يكون بالنص، وهذا ظاهر لا خلاف فيه، وأحيانًا لا يصرح بالقيد، وإنما تدل عليه الأحوال والقرائن من نصوص أخرى جاءت مقيدة، ومن العلماء من يحمل المطلق منها على المقيد ومنهم من لا يحمله، وعلى هذا قول الشافعي رحمه الله تعالى: "اللفظ بيّن في مقصوده ويحتمل في غير مقصوده " وهو ما يدرسه العلماء في باب المطلق والمقيد في كتب الأصول وعلوم القرآن والحديث .

تعريف المطلق:

المطلق في اللغة : هو المنفك من كل قيد حسيًا كان أو معنويًا، تقول: أطلقت الدابة إذا فككت قيدها وسرحتها، وهذا إطلاق حسي، ويقال: طلق الرجل زوجته إذا فك قيدها من الارتباط به وهذا إطلاق معنوي .

المطلق في الاصطلاح: ذكر العلماء تعريفات كثيرة منها:

المطلق: هو ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي .

وقال ابن قدامة هو: المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه . وقال ابن فارس: أما الإطلاق: فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة، ولا شرط، ولا شيء يشبه ذلك".

وعند الآمدي: المطلق هو "النكرة في سياق الإثبات" قال القرافي: "كل شيء يقول الأصوليون: إنه مطلق، يقول النحاة: إنه نكرة. وكل شيء يقول النحاة: إنه نكرة،

يقول الأصوليون: إنه مطلق.. فكل نكرة في سياق الإثبات مطلق عند الأصوليون، فما أعلم موضعًا ولا لفظًا من ألفاظ النكرات يختلف فيها النحاة والأصوليون، بل أسماء الأجناس كلها في سياق الثبوت هي نكرات عند النحاة، ومطلقات عند الأصوليين".

ومن المعلوم أن النكرة عند النحاة هي: كل اسم شائع في جنسه، لا يختص به واحد دون آخر، مثل رجل، كتاب، فرس .

ولهذا قال الآمدي بعد ذلك: وإن شئت قلت: هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه ، وعرف ابن الحاجب وغيره من الأصوليين المطلق بأنه: "ما دل على شائع في جنسه". وبهذا يتبين أنه لا فرق بين المطلق والنكرة غير المستغرقة في سياق الإثبات بل هما بمعنى واحد في عرف النحاة والأصوليين ، ومثال المطلق الرقبة في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} .

المقيد لغة:

هو ما يقابل المطلق في اللغة فالقيد هو الربط حسيًا كان أو معنويًا تقول قيدت الدابة إذا ربطتها بحبل ونحوه، وهذا قيد حسي، وفي الحديث: "الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن" قال ابن منظور: "معناه أن الإيمان يمنع عن الفتك بالمؤمن" ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قيدوا العلم بالكتاب" "قلت" وهذا وذاك قيد معنوي.

والمقيد اصطلاحًا:

نكر العلماء له تعريفات كثيرة وهو ما يقابل المطلق على اختلاف التعريفات:

فقيل: هو ما دل على الماهية بقيد.

وقيل: هو المتناول لمعين، أو لغير معين موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه ، ومثال المقيد الرقبة في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} فاشترط في الرقبة أن تكون مؤمنة وهذا قيد لها، ولو لم يشترط لكانت الرقبة مطلقة .

حمل المطلق على المقيد:

إذا ورد الخطاب مطلقًا لا مقيد له، وجب حمله على إطلاقه . وإذا ورد الخطاب مقيدًا لا مطلق له وجب حمله على تقييده .

وإذا ورد الخطاب مطلقًا في موضع ومقيدًا في آخر فله أربع صور:

الصورة الأولى: أن يتحد السبب والحكم:

فقد ورد تحريم "الدم" مطلقًا في قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} وورد تحريمه مقيدًا بكونه مسفوحًا في قوله تعالى: {قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ} والحكم في الآيتين واحد وهو "التحريم"، والسبب واحد، فاتحد الحكم والسبب، فيحتمل المطلق على المقيد باتفاق لأن العمل بالمقيد عمل بالآيتين والعمل بالمطلق عمل بإحدى الآيتين دون الأخرى، والعمل بهما أولى من العمل بإحداهما، وبالعمل بالآيتين يخرج بالمكلف من العهدة بيقين .

وكقوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} فإنه مطلق وورد القيد في قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ} فنصيبه هنا مقيد بأن يكون بعد الوصية والدين فيحمل المطلق على المقيد في جميع المواريث فلا يوزع شيء من التركة على الورثة إلا بعد الوصية والدين .

الصورة الثانية: أن يختلف السبب والحكم

فإذا اختلف السبب والحكم فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق فقوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} مطلق في الأيدي من غير تقييد لأي اليدين أو إلى أي حد يكون القطع، أما غسل الأيدي في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} فمقيد إلى المرافق ولا يصح هنا حمل المطلق على المقيد لاختلاف السبب "سرقة في المطلق" و "وضوء في المقيد" ولاختلاف الحكم "قطع في المطلق" و "غسل في المقيد" فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق كما قال الشوكاني وحكاه الباقلاني والجويني وإلكيا الهراس وابن برهان والآمدي وغيرهم .

الصورة الثالثة: أن يتحد السبب ويختلف الحكم

فغسل الأيدي في الوضوء مقيد إلى المرافق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}. ومسح الأيدي في التيمم مطلق في قوله تعالى: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ}

ولو نظرنا في الآيتين لوجدنا سبب الوضوء والتيمم واحد وهو "الحدث" ولكن الحكم مختلف ففي الآية الأولى الحكم "الغسل" وفي الثانية "المسح".

وفي هذه الصورة لا يحمل المطلق على المقيد، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: "لا خلاف في أنه لا يحمل أحدهما على الآخر بوجه من الوجوه سواء كانا مثبتين أو منفيين أو مختلفين اتحد سببهما أو اختلف، وقد حكى الإجماع جماعة من المحققين آخرهم ابن الحاجب" .

الصورة الرابعة: أن يختلف السبب ويتحد الحكم :

وإذا كان العلماء في الصور الثلاث السابقة اتفقوا أو كادوا على حكم كل صورة فإنهم في هذه الصورة قد اختلفوا ، ولهذا الصورة حالتان:

الأولى: أن يكون القيد واحداً : فالرقبة "مطلقة" في كفارة الظهار في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} .ومطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى: {لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} . ومقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} وإذا نظرنا إلى أسباب الكفارة في الآيات الثلاث وجدناها مختلفة فالسبب في الآية الأولى "الظهار" وفي الثانية "الحنث باليمين" وفي الثالثة "قتل المؤمن خطأ".

وإذا نظرنا إلى الحكم وجدناه واحدًا وهو عتق الرقبة لكنه في الظهار واليمين مطلق، وفي القتل مقيد فهل يحمل المطلق في هذه الصورة على المقيد فنوجب في كفارة الظهار، واليمين أن تكون الرقبة مؤمنة أيضًا. هذا ما وقع الخلاف فيه بين العلماء ؛ فذهب الأحناف وأكثر المالكية وروي عن الإمام أحمد إلى أنه لا يحمل المطلق على المقيد فيجوز في كفارة الظهار واليمين عتق الرقبة الكافرة. ولا يجوز في كفارة القتل

إلا الرقبة المؤمنة. وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد فيجب أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات .

الثانية: أن يكون القيد متعدداً : فالصوم "مطلق" في كفارة اليمين في قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام} وفي قضاء رمضان: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} ومقيد بالتتابع في كفارة القتل في قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ} . وكذلك في كفارة الظهار في قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} ومقيد بالتفريق في صوم المتمتع بالحج في قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} واتفق العلماء على أنه لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف القيد وعدم وجود مرجح لأحد القيود. وحمله على أحدهما دون الآخر بلا دليل تحكم فليس أحدهما بأولى من الآخر .

فواصل الآيات:

الفاصلة في اللغة هي الشيء الذي يفصل بين أمرين، وتطلق على الخرزة بين خرزتين، والفصل القضاء بين الحق والباطل، والتفصيل هو التبيين والتوضيح، وكتاب فصلناه أي بيناه ووضحناه.

واستعملت الفاصلة في القراءات القرآنية كمصطلح دال على الكلمة التي تأتي في آخر الجملة ، قال أبو عمرو الداني: الفاصلة: كلمة آخر الجملة، وفرق بين الفواصل ورءوس الآية، فالفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده، سواء كان رأس آية أو نهاية كلام، وتسمى بالاستراحة في مجال الخطاب، حيث يتوقف الكلام .

وقال أبو بكر الباقلاني: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني.

وقال الزركشي في البرهان: الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع.

وقد ألف بعض العلماء في الفواصل، من هؤلاء، نجم الدين الطوفي المتوفى سنة ٧١٦ هـ الذي نسب إليه كتاب «بغية الواصل إلى معرفة الفواصل» وهو كتاب مفقود، وهناك كتاب آخر «القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز» لأبي عبد الله المخللاتي المتوفى سنة ١٣١١ هـ وهو موجود في الخزانة التيمورية .

لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي:

أولاً : التوقيفي : فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة، ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة.

ثانياً : القياسي : فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان .

وقال بعض العلماء: «تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعا، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه».

هل يوجد سجع في القرآن ؟ هناك خلاف بين العلماء فذهب الرماني في إعجاز القرآن، والباقلاني أيضا إلى عدم وجود سجع في القرآن، وفرقوا بين الفاصلة والسجع، فالفاصلة بلاغة والسجع عين، وذهب غيرهم إلى إثبات السجع في القرآن، لأن ذلك مما يتبين فيه فضل الكلام، وإنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات .

وهذا الخلاف بين من قال بإثبات السجع في القرآن، ونفيه عنه هو الرغبة في تنزيه القرآن عما لا يليق به من الأوصاف، فمن نفى السجع اعتبر أن السجع تكلف وتصنع، والقرآن لا تكلف فيه، ومن أثبت السجع في القرآن نظر إلى كلام فصحاء العرب، واعتبر أن بعض السجع فضيلة، وهو دليل فصاحة .

وقال بعضهم: «وكيف يعاب السجع على الإطلاق، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلام العرب، وإنما لم يجئ على أسلوب واحد، لأنه لا يحسن في الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا وردت بعض آي القرآن متماثلة المقاطع وبعضها غير متماثل» .

وهذا الخلاف- على ما يبدو- ظاهري، فهو يناقش الفواصل القرآنية، ثم يقف أمام التسمية متسائلا: هل هذا النسق في النظم القرآني يعتبر سجعا، أم أنه نوع جديد من أنواع البلاغة القرآنية، فمن أنكر إنما أنكر التسمية، فكلمة «السجع» كانت تستخدم في كلام الكهان، وهي تدل على تصنع وتكلف، والقرآن منزه عن ذلك، ولو قيل بإثبات السجع في القرآن لكان الأسلوب القرآني غير خارج عن أساليب العرب، وهذا ينافي الإعجاز القرآني، الذي يؤكد تميّز القرآن عن أساليب العرب، وفضلا عن هذا فإن السجع تحكمه أوزان ولا يمكن للسجع أن يخرج عن أوزانه المعتادة، وإلا اعتبر ذلك السجع خارجا عن نطاق السجع المستحب والممدوح.

ومن أثبت السجع في القرآن، فإنه لم يعتبر أن السجع عيب في القرآن، وبخاصة إذا كان ذلك السجع خاليا من تكلف أو تصنع، ولا يمكن لسجع القرآن إلا أن يكون في أعلى درجات الفصاحة، والنهي مقتصر على سجع الكهان، لما يتصف به ذلك السجع من زيف وباطل.

ولذلك فإن الخلاف ظاهري، وهو خلاف مصطلح وتسمية، ولا يترتب عليه أي أثر، ولا شك أن أسلوب القرآن متميز، ولو وقع الالتزام بالمصطلحات القرآنية لكان أفضل، ولابتعدنا عن كثير من المزالق، فالفاصلة القرآنية ذات خصوصيات أسلوبية، وذات صيغ متعددة، وذات تعبيرات إعجازية قد تدلك بدرجات متفاوتة، فما يدركه البعض من مظاهر الإعجاز والجمال قد لا يدركه البعض الآخر.

ولا شك أن القرآن راعى المناسبة بين الفواصل، وهو أمر مألوف في اللغة، ومحمود في الأسلوب، ومؤثر في جمال العبارة، وقال شمس الدين بن الصائغ المعروف بابن أبي الفرس المتوفى سنة ٧٧٦ هـ، في كتابه «إحكام الرأي من أحكام الآي»: بأن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول، وتتبع ذلك في القرآن، وعثر على أكثر من أربعين حكما، نورد منها أمثلة :

١ - زيادة حرف كإلحاق الألف في قوله: وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا.

٢ - حذف همزة أو حرف كقوله تعالى: وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ.

٣ – تأخير ما أصله أن يقدم: كقوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى، وقوله: وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ فأخر الفاعل لأجل الفاصلة.

٤ – إفراد ما أصله أن يجمع، كقوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ والأصل «الأنهار» .

٥– جمع ما أصله أن يفرد، كقوله تعالى: لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ والأصل ولا خلة بالإفراد.

٦ – تثنية ما أصله أن يفرد، كقوله تعالى: وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ وأنكر ابن قتيبة أن الغاية من التثنية هنا مراعاة الفاصلة، ومعه حق في إنكاره، لأن مراعاة الفاصلة فيما لا يضيف معنى، كزيادة حرف لا يضيف معنى.

٧ – تأنيث ما أصله أن ينكر، كقوله تعالى: كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ.

٨ – صرف ما أصله ألا ينصرف: كقوله تعالى: قَوارِيرَا (١٥) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ فنوّن الكلمتين لأجل التناسب مع الفواصل وَأَغْلالًا وَسَعِيراً.

٩ – إمالة ما أصله ألا يمال: كقوله تعالى: وَالضُّحى (١) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى، وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها، وجَلَّاها وغشاها.

١٠ – العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال، كقوله تعالى: فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ، ولم يقل: «وفريقا قتلتم».

١١ – إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر: كقوله تعالى: فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ.

١٢ – حذف المفعول كقوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى، ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى.

١٣ – إثبات هاء السكت: كقوله تعالى: مالِيَهْ/ سُلْطانِيَهْ/ ما هِيَهْ.

قال الزمخشري: «لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظوم فيه إلى مؤداه، فليس من قبيل البلاغة، وبني على ذلك أن التقديم في وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ليس لمجرد الفاصلة بل لرعاية الاختصاص» .

أنواع الفاصلة:

ويلاحظ أن فواصل القرآن إما أن تكون متماثلة أو متقاربة، فالفواصل المتماثلة دالة على حسن البيان ما لم تكن متكلفة، كقوله تعالى: وَالطُّورِ (١) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ [الطور:١ – ٥]، وقوله أيضا: وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً [العاديات: ١ – ٥]، وقوله أيضا: وَالْفَجْرِ (١) وَلَيالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ [الفجر: ١ – ٤].

أما الفواصل المتقاربة فلا تعتبر من السجع عند من يقول بإطلاق السجع في القرآن، لانعدام التماثل في الحروف، كقوله تعالى:{ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }.

ولهذا فإن للفاصلة إسهام كبير في النظم الموسيقى في القرآن وهذا يكون على أنواع:

١–قد يشتد هذا التقارب الموسيقى في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان– أو الفواصل– في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: وَالطُّورِ (١) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) [سورة الطور، الآيات ١ – ٤]. وقوله تعالى: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) [سورة الغاشية، الآيتان ١٣ – ١٤]. وقوله تعالى في ختامها: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (٢٦) [سورة الغاشية، الآيتان ٢٥ – ٢٦].

٢–قد تختلفان في الوزن، ولكنهما تتفقان في حروف السجع، كقوله تعالى: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (١٤) [سورة نوح، الآيتان ١٣ – ١٤].

٣–قد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية كقوله تعالى: وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) [سورة الغاشية، الآيتان ١٥ – ١٦] ، وقوله تعالى: وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) [سورة الصافات، الآيتان ١١٧ – ١١٨] ، قوله تعالى: كَلَّا إِنَّها لَظى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعى (١٨) [سورة المعارج، الآيات ١٥ – ١٨] وهذا النوع في القرآن كثير.

٤–أخيرا، قد تختلفان وزنا وقافية، ولكنهما تتقاربان كقوله تعالى: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) [سورة الفاتحة، الآيتان ٣ – ٤] ، وقوله: ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) [سورة ق، الآيات ١ – ٢] ، وهذا لا يسمّى سجعا لأن السجع ما تماثلت حروفه.

ويمكن أن نعود بهذه الأنواع إلى قسمين:

القسم الأول : ما تماثلت حروفه في المقاطع، أي الفواصل المتفقة في الحرف الأخير، وتسمى: متماثلة.

القسم الثاني: ما عداها وتدعى متقاربة، وهي التي تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل. ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين ، هذا وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب ، ولكن في حرف قبله أو أكثر .. حيث يبلغ النظم الموسيقى وسائر ضروب الإيقاع قمة السلاسة واللين والجمال؛ على عكس ما تراه في السجع المتكلّف عند الأدباء والكتّاب .

١-مثال التزام حرف- أي قبل الحرف الأخير- قوله تعالى: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) [سورة الشرح، الآيات ١ – ٤] ، وقوله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) [سورة الضحى، الآيتان ٩ – ١٠] .

٢-مثال ما اتفقا في حرفين قوله تعالى: وَقِيلَ مَنْ راقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (٢٨) [سورة القيامة، الآيتان ٢٧ – ٢٨] ، وقوله تعالى: وَالطُّورِ (١) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) [سورة الطور، الآيتان ١ – ٢] ، وفيها أيضا: إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (٨) [سورة الطور، الآيتان ٧ – ٨].

٣-مثال التزام ثلاثة أحرف: قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) [سورة الأعراف، الآيات ٢٠١ – ٢٠٢] .

فواتح السور :

اهتم العلماء المتخصصون بعلوم القرآن والباحثون عن أوجه الإعجاز فيه بدراسة فواتح السور القرآنية في إطار دراستهم لكل ما يتعلق بالقرآن، من حيث قطعية ثبوته وأوجه دلالته.

وجاء افتتاح السور القرآنية متعدد الأشكال مختلف الأساليب، واضح الدلالة على معاني دقيقة، بعضها واضح جلي، والبعض الآخر لا سبيل لمعرفته، وحرص العلماء على بيان رأيهم واجتهادهم فيه، ملتمسين أوجه الحكمة في ذلك، باحثين عن دلالات هذه الظاهرة التي تدخل ضمن مظاهر الإعجاز ، وكتب ابن أبي الإصبع كتابا في هذا الموضوع سماه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح» (١)، حققه الدكتور حفني شرف، وطبع بمصر سنة ١٩٦٠.

قال الزركشي في البرهان: «وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها» .

الأول: الاستفتاح بالثناء عليه عز وجل، وهو قسمان:

١ – إثبات لصفات المدح، كالتحميد «الحمد لله»، وجاء في خمس سور، الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر، و «تبارك» وجاءت في سورتي الفرقان والملك تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ، تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ.

٢ – تنزيه الله عن النقص: كالتسبيح، وجاء في سبع آيات، في الإسراء والحديد والحشر والأعلى والجمعة والتغابن، سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، سَبَّحَ لِلَّهِ، يُسَبِّحُ لِلَّهِ ، وهذه أربع عشرة سورة، نصفها لإثبات صفات الكمال له، ونصفها لتنزيه الله عن النقص.

الثاني: الاستفتاح بحروف التهجي: وجاء في تسع وعشرين سورة، الم، المص، المر، كهيعص، طه ، طس، طسم، حم، حم عسق، ق، ن، قال الزمخشري في الكشاف: «وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، ثم تجدها مشتملة على أصناف أجناس الحروف، المهموسة والمجهورة والشديدة والمستعلية والمطبقة والمنخفضة وحروف القلقلة» . وحاول العلماء إيجاد رابط بين أحرف الافتتاح وموضوع السورة، فسورة «ق» مناسبة لما في حرف القاف من شدة وجهر وقلقلة وانفتاح، وسورة «ص» اشتملت على خصومات متعددة وسورة «ن والقلم» جاءت فواصلها على الوزن من الألفاظ النونية.

الثالث: الاستفتاح بالنداء: وجاء في عشر سور: قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ وجاءت في الأحزاب والطلاق والتحريم . وقال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ وجاءت في سورة المدثر. وقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وجاءت في المائدة والحجرات والممتحنة . وقال: يا أَيُّهَا النَّاسُ وجاءت في النساء والحج . وقال: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ في سورة المزمل .

الرابع: الاستفتاح بالجمل الخبرية: وجاء في ثلاث وعشرين سورة : قال تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَنْفالِ، وبَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ، أَتى أَمْرُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الرَّحْمنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ، قَدْ سَمِعَ اللَّهُ .

الخامس: الاستفتاح بالقسم: وجاء في خمس عشرة سورة : قال تعالى: وَالصَّافَّاتِ، ووَ الذَّارِياتِ، وَالطُّورِ، وَالنَّجْمِ، وَالْمُرْسَلاتِ، وَالْفَجْرِ، وَالضُّحى (١) وَاللَّيْلِ ... وهكذا.

السادس: الاستفتاح بالشرط: وجاء في سبع سور: قال تعالى: إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ، إذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ، إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ، إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ .

السابع : الاستفتاح بالأمر: وجاء في ست سور: قُلْ أُوحِيَ، اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ، قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، قُلْ أَعُوذُ في سورتين.

الثامن: الاستفتاح بالاستفهام: وجاء في ست سور: قال تعالى: هَلْ أَتى، عَمَّ يَتَساءَلُونَ، هَلْ أَتاكَ، أَلَمْ نَشْرَحْ، أَلَمْ تَرَ، أَرَأَيْتَ.

التاسع: الاستفتاح بالدعاء: وجاء في ثلاث سور: قال تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ، تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .

العاشر: الاستفتاح بالتعليل: وجاء في سورة واحدة : قال تعالى: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ.

اختلاف العلماء في حروف التهجي:

اختلف العلماء في الحروف المقطعة في أوائل السور على قولين :

القول الأول: هذا علم مستور وسر محجوب استأثر الله به، وروي عن الصديق قوله: في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور، وقال الشعبي: (إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل) قال الرازي: (وقد أنكر المتكلمون هذا القول وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يفهمه الخلق، لأن الله أمر بتدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه) .

القول الثاني: المراد منها معلوم، وذكروا ما يزيد عن عشرين وجها، ومن أهم هذه الأوجه ما يأتي :

١ - كل حرف من هذه الأحرف مأخوذ من اسم من أسماء الله، فالألف من الله، واللام من لطيف.

٢ - هذه الأحرف تدل على القسم بأن هذا الكتاب لا ريب فيه، كالقسم بالضحى والليل والطور والفجر.

٣ - كل حرف يدل على معنى: «الم» تفيد أنا الله أعلم ، «المص» تفيد أنا الله أفصل ، «الر» أنا الله أرى .

٤ - إنها أسماء للسور، ولتمييز بعضها عن بعض، وقال الرازي: هذا قول أكثر المتكلمين.

٥ - هذه الأحرف هي سر القرآن، ولا يعلم السر إلا الراسخون في العلم.

٦ - الغاية من هذه الأحرف صرف العرب عن اللغو إذا سمعوا القرآن، ودفعهم إلى التعجب من أسلوبه والإنصات له، لكي ترق قلوبهم إذا سمعوا القرآن .

٧- افتتح الله السور بهذه الأحرف للدلالة لكل حرف منها على معاني كثيرة، ويجوز أن يكون الافتتاح بهذه الأحرف لتحقيق هذه المعاني كلها، كالدلالة على أسماء الله، ولإثارة الانتباه إلى قراءة القرآن، وللإعجاز بها.

٨ - للدلالة على أن القرآن مؤلف من حروف، وإن هذا الأسلوب يدفع العرب للبحث عن أوجه الحكمة من هذا الافتتاح، وتلمس جوانب الإعجاز.

وهذه بعض الأقوال، وهناك أقوال أخرى، والواضح في هذه الأقوال تلمس وجه الحكمة بكل المعاني والدلالات المحتملة، والأفضل في هذا الموطن أن ينظر فيه في إطار مظاهر الإعجاز البياني الذي تحدى الله به العرب، ولا يمكن معرفة وجه الحكمة، لأن ذلك مما يخرج عن إطار القدرة العقلية، فالقدرة العقلية تحكمها معايير مادية، ولا سبيل إلى معرفة الحكمة في القضايا التوقيفية، لعجز العقل عن إدراك الحقيقة، ولا تدرك الحقيقة إلا بالنقل، والنقل لا يثبت إلا بدليل، وتعدد الرأي في الأمر دليل على عدم وجود دليل نقلي عن النبي صلى الله عليه وسلم يوضح هذه الحكمة، ويفسر هذه الظاهرة القرآنية.

وما أجمل أن تظل مظاهر الإعجاز معجزة على الفهم، يقف المفسرون أمامها عاجزين لا يقدرون على شيء من فهمها، وتظل آراؤهم واجتهاداتهم قاصرة عن إدراك جوانب العظمة في القرآن الكريم، في فواتح السور وخواتمها، في حروف التهجي، في رسم القرآن، في كل متشابه، يؤكد عظمة الإعجاز، وسمو النص القرآني، وما أجمل أن تظل الم، المص، المر، حم، طسم، وطه، وق آيات محكمات معجزات، يدرك العقل عظمة الحرف في أداء معناه، وتدرك الفطرة ما لا يدركه العقل من جوانب الفهم، ويقف أصحاب القلوب اليقظة خاشعين ينصتون إلى صوت القارئ وهو يردد هذه الأحرف الناطقة، فيفهمون بقلوبهم وفطرتهم ما لا يفهمه العقلاء من العلماء الذين حجبهم علمهم عن إدراك كثير من الحقائق، وانصرفت هممهم إلى استنطاق الأحرف الصامتة، والأحرف لا تنطق، لأنها تخاطب القلوب ولا تخاطب العقول، وما أقسى حجاب العقول وهي تصرف الهمم عن الفهم الصحيح إلى استعمال أقيسة ضيقة الأفق، لا تلهم ولا تخاطب ولا تنطق، وما أجمل آيات القرآن وهي تسري كالدماء في شرايين الجسد الإنساني، تحييه وتوقظه وتبعث فيه الدفء والنور والحياة .

ولا نملك في موطن الحديث عن حروف التهجي في القرآن إلا أن نقف خاشعين أمام أسلوب القرآن المعجز.

– ألم تؤد هذه الأحرف أغراضها في الخطاب القرآني؟

– ألم يجد المسلم في هذه الأحرف القرآنية قداسة القرآن وعظمة أسلوبه؟

– ألم يقف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأدب وخشوع أمام هذه الأسرار؟ فلم يتطاولوا على القرآن بفهم عقيم، ولم يحاولوا الجدل فيما لا طائل تحته ولا فائدة منه.

فما أجدرنا أن نقف اليوم بخشوع أمام جلال القرآن، فلا نتخطاه ونتلقى الخطاب القرآني كما تلقاه أسلافنا، بفهم عميق وإدراك لأغراضه ومقاصده .

خواتم السور:

وتميزت خواتم السور كما تميزت فواتح السور بدلالات ومعاني وإشارات محققة أهدافها في مخاطبة البشر، مبينة لهم حكما، ومواعظ، داعية لهم بالهداية والاستقامة، مبشرة ومنذرة.

انظر إلى ذلك الخطاب الرباني الملهم في آخر سورة البقرة: {رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ } ما أجمل هذه الخاتمة، القرآن يعلمنا كيف ندعو الله، كيف نلتجئ إليه، ندعوه بألا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وندعوه بألا يحملنا ما لا طاقة لنا به ، خاتمة رائعة ، ما أجمل أن يقف المفسرون أمامها بخشوع وأدب ، لا يفسرونها بالقواميس، ولا يشوهون لغتها بالمفردات اللغوية، ولا يعبثون بجمالها، ولا يحيطونها بمعاني جديدة، فهي أوضح من كل تفسير، وأجمل من كل تعبير وأدل على المراد من كل بيان .

وتأتي نهاية سورة آل عمران داعية المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والمرابطة ، وكأنها توقظ الأمل في نفوس المؤمنين ، وتحثهم على مواجهة الشدائد، ثم تقول بعد ذلك لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ولا نهاية للفلاح ، فالفلاح هو الأمل وهو النهار بعد ليل طويل .

وتأتي سورة النساء مبينة لأحكام الفرائض، لئلا يقع الظلم، والظلم ضلال، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وهذه هي الرقابة التي تضمن أن تنفذ الأحكام كما أرادها القرآن .

ثم تأتي المائدة وبعدها الأنعام والأعراف والأنفال، وكل سورة تختم بخاتمة ملائمة، ناصحة أو موجهة أو معلمة أو محذرة أو داعية لصبر أو حاثة على الاعتماد على الله والتوكل عليه .

قال السيوطي في خواتم السور: (هي أيضا مثل الفواتح في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد إلى غير ذلك) .

علم مناسبة الآيات والسور :

تعريف المناسبة:

لغة: المناسبة: المقاربة والمشاكلة، يقال: فلان يناسب فلاناً، أي: يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب وهو القريب المتصل، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارن للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقارنته للحكم ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، كالإسكار في الشراب علة التحريم، والمناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[1].

واصطلاحاً: المناسبة هي وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك.

أو هي وجه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض.

أهمية هذا العلم ومكانته:

أكد العلماء كثيراً على أهمية هذا العلم ومكانته وفضله، يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول»[2].

وقال ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»[3].

وقال الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[4]، وقال: «إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٨.
(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٦.

أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك»[1].

فوائد علم المناسبات:

ولهذا العلم فوائد كثيرة منها:

١ ـ جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وبهذا يظهر وجه من أوجه الإعجاز البلاغي.

٢ ـ إبطال الشبهات وإزالة الشك الحاصل في القلب بسبب خفاء وجه الاتصال بين بعض الآيات، وبالتأمل والتدبر يزول الإشكال.

٣ ـ إدراك بعض أسرار التشريع وحكمته، والتلازم التام بين أحكام الشريعة فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾[2] وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، علمت ما بينهما من التلازم. فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزل قدمه في الآثام.

٤ ـ أنه يعين على فهم الآية وتحديد المراد منها، ومثال ذلك خلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾[3] حيث قال الجمهور: هي الملائكة، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾[4].

---

(١) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٢٨.

(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

(٣) سورة الصافات: الآية ١.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٦٥.

٥ ـ كشف حكمة تكرار بعض قصص القرآن، وأن القصة تكرر حسب المناسبة، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها ومقدار ما يذكر منها بحسب المناسبة، وإن كانت القصة في أصلها واحدة[١].

خلاف العلماء في المناسبات:

للعلماء في المناسبات في القرآن الكريم قولان:

الأول: المنع:

وذهب إلى ذلك العز بن عبد السلام ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر».

قال: «ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»[٢] كما ذهب إلى هذا الرأي أيضاً الشوكاني في تفسيره[٣].

الثاني: الجواز:

وذهب إلى ذلك جمهور العلماء وعامتهم، قال ولي الدين الملّوي: «قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب

---

(١) انظر في هذه الفوائد «علم المناسبات في القرآن» محمد بن عبد العزيز الخضيري، مجلة البيان، العدد ١٤٦، ص٢٠.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني، جـ١، ص٧٢-٧٣.

الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف»[1].

ووضح ذلك د. محمد عبد الله دراز فقال عن آيات القرآن الكريم: «إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فُرِّقَ أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة»[2].

أنواع المناسبات:

المناسبات في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

١ ـ المناسبة بين الآية والآية التي تليها:

ومثاله قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾[3] حيث ذكر محاسبته على الحسنات فناسب أن يذكر محاسبته على السيئات ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[4].

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[5] جاء بعدها ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[6].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآيات؟

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.
(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص١٥٤-١٥٥.
(٣) سورة الزلزلة: الآية ١.
(٤) سورة الزلزلة: الآية ٨.
(٥) سورة الغاشية: الآية ١٧.
(٦) سورة الغاشية: الآيات ١٨-٢٠.

أنواع المناسبات :

أولا : - المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة :

إذا تدبرنا سورة من سور القرآن الكريم ، أخذتنا روعة ألفاظها في سهولتها نطقا ، وقرب مأخذها معنى ، ومجيئها على قدر المعنى الذي صيغت له . والمتأمل لألفاظ القرآن الكريم ، يجدها وضعت في موضعها من النظم الكريم ، فهي مفردات مختارة منتقاة ، واللفظ في موضعه متناسب من حيث اللفظ أو المعنى ، وجاء على قدر المعنى الذي صيغ له ، بحيث لو رفعت اللفظ من الآية ، أو استبدلته بآخر ، لاختل نظامها ، وضاع المراد منها .

يقول ابن عطية : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد ،ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب –يومئذ – في سلامة الذوق ، وجودة القريحة) .

والتناسب بين أجزاء الآية ، يكون من حيث اللفظ أو المعنى :

أما من حيث اللفظ : ونعني به مناسبة اللفظ لألفاظ الآية : وذلك مثل قوله تعالى : (قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) .

فقد جاءت الألفاظ بحيث يلائم بعضها بعضا ، وذلك بأنه أتى في الآية بألفاظ متناسبة في الغرابة ، فالتاء : أغرب ألفاظ القسم ، وذلك لأنها أقل استعمالا من الواو ، والباء ، وأتى بـ(تفتؤا) ، وفتئ : أغرب صيغ الأفعال التي تفيد الاستمرار من أخوات(كان) ، وأتى بلفظ (حرضا) : وهو أغرب ألفاظ الهلاك . فاقتضى حسن الوضع في النظم ، أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها توخيا في حسن الجوار ، ورعاية في ائتلاف المعنى بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم . وجاءت هذه الألفاظ غريبة لتتوافق مع حال يعقوب – عليه السلام – التي وصل إليها، وإشفاق أبنائه على حاله ، وخشيتهم عليه من الهلاك .

وأما تناسب اللفظ من حيث المعنى : ففي مثل قوله تعالى : – (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ..). فإنه تعالى لما نهى عن الركون إلى الظالمين وهو الميل إليهم ، والاعتماد عليهم ، وكان ذلك دون مشاركتهم في الظلم ، أخبر أن العقاب

على ذلك ، دون العقاب على الظلم ، ومن ذلك قوله تعالى:(ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) .

وقوله سبحانه : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ..).فقدم رزق الآباء في آية الأنعام على الأبناء ، وفي آية الإسراء قدم رزق الأبناء على الآباء ، وذلك أن الكلام في الآية الأولى ، موجه إلى الفقراء دون الأغنياء ، فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم ، لا أنهم يخشونه ، فأوجبت البلاغة تقديم عدتهم بالرزق ، وتكميل العدة برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية (آية الإسراء) ، الخطاب لغير الفقراء ، وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر ، لا أنهم مفتقرون في الحال ، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى، فوجب تقديم العدة برزق الأولاد ، فيأمنوا ما خافوه من الفقر ، فقال :لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم ، أي أن الله جعل معهم رزقهم ،فهم لا يشاركونكم في رزقكم ، فلا تخشوا الفقر .

ومن المناسبات بين أجزاء الآية : مراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى والسياق ، مع مراعاة الانسجام في فواصل الآيات ، لما لذلك من تأثير كبير على السمع ، ووقع مؤثر في النفس ، من ذلك قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) وقوله سبحانه : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم مع الآيات فيهما ، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي ختمت فيها كل آية من الآيتين ، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم ، في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته ، فختم الآية بصفة الإنسان وأن الآية الثانية في سورة النحل : في سياق صفات الله تعالى ، فذكر صفاته .

ثانيا : – المناسبة بين الآيات :

أن ارتباط الآية بالآية ، هو أن يظهر الارتباط بين الآية الثانية والآية الأولى ، بأن كانت الآية الثانية سببا للأولى ، أو مفسرة لها ، أو مؤكدة ، أو بدلا ، أو جاءت

معترضة ، إلى غير ذلك من وسائل الارتباط . وهذا النوع لا يتطلب كثير جهد في استخراج المناسبة ، ما دام الطالب لمعرفتها ، واستخراجها ، مستوفيا للشروط التي يجب توافرها في المفسر ، لأن الترابط واضح .

ومن أمثلة هذا النوع :

أ – أن تكون الآية الثانية سببا للأولى : وذلك مثل قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) ووجه النظم : أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : (ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) ، قال في الآية الثانية : (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أي : ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا : (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) .

ب – أن تكون الآية الثانية تفسيرا للأولى : وذلك مثل قوله تعالى :(إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا .وإذا مسه الخير منوعا .) فقوله : (إذا مسه الشر ... الآيات) تفسير لقوله : هلوعا . ويؤتى بالتفسير إذا كان في الكلام خفاء يحتاج إلى ما يكشفه ويبينه .

ث – أن تكون الآية الثانية تأكيدا للأولى : مثل قوله تعالى : (ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجوة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار .) فقوله : (ويا قوم ما لي أدعوكم ..) تأكيد لما قبله ، فقد كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة ، واهتماما بالمنادى له ، ومبالغة في توبيخهم على ما قابلوا به دعوته .

ج – أن تكون الآية الثانية بدلا من الأولى : مثل قوله تعالى : (أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم .) فإن لفظ (الصراط) الثانية في الآية بدل من الأولى ، والبدل موضح ، ومبين للمبدل منه .

ح – أن تكون الآية معترضة : فبالإضافة إلى أن الاعتراض يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه ، ومقررا له في نفوس السامعين ، فإنه يأتي لأغراض بلاغية ، منها : أنه يأتي لتعظيم المقسم به ، وتفخيمه ، وذلك كما في قوله تعالى : (فلا

أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم .) ففي هذا الكلام اعتراضان : أحدهما قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، لأنه اعتراض بين القسم الذي هو : (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، وبين جوابه : (إنه لقرآن كريم) والثاني : قوله : (لو تعلمون) ، وهو اعتراض بين الموصوف الذي هو :(قسم)، وبين صفته ، الذي هو :(عظيم) وفائدة الاعتراض : هو تعظيم شأن المقسم به في نفس القارئ ، أو السامع ، أي : أنه من عظم الشأن وفخامة الأمر ، بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم .

ثالثاً : التناسب بين سور القرآن الكريم :

إن التآلف والترابط والتناسب كما هو حاصل بين آيات القرآن الكريم في السورة الواحدة ، حاصل بين سور القرآن ، فأنت لا تقرأ سورة من سور القرآن بإمعان ، إلا وتجد بينها وبين سابقتها مناسبة ورابطة ، تظهر سر الإعجاز في ترتيب سوره وهو على ثلاثة أقسام :-

القسم الأول : مناسبة فواتح السور لخواتمها : - من ذلك ما في سورة القصص ، فقد بدأت بقصة موسى عليه السلام ، والوعد برده لأمه ، ودعائه ألا يكون ظهيرا للمجرمين . ثم ختم الله السورة بتسلية رسولنا – صلى الله عليه وسلم – بخروجه من مكة ، ووعده بالرجوع إليها ، (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وقد عاد إليها فاتحا منتصرا ، وقيل له : (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) ، وسورة المؤمنون افتتحت بقوله تعالى :(قد أفلح المؤمنون) ، وورد قبل آخرها بآية : (إنه لا يفلح الكافرون) وفي سورة (القلم) نفى في أولها ما رمي به – صلى الله عليه وسلم – من الجنون ، فقال : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وفي آخرها حكى قول المشركين ، فقال : (ويقولون إنه لمجنون) فسبحان من نفى عن رسوله التهمة قبل حكايتها .

القسم الثاني : مناسبة افتتاح السورة لخاتمة ما قبلها :قال الزركشي : (إذا اعتبرت افتتاح كل سورة ، وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبله ، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى). كقوله سبحانه في آخر سورة الطور : (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) ثم قال في السورة التي تليها : (والنجم إذا هوى) ، وافتتاح سورة

الحديد بالتسبيح بقوله تعالى : (سبح لله ما في السموات والأرض) ، فإنه في غاية المناسبة لختام سورة الواقعة التي قبلها ، والتي أمرت به بقوله (فسبح باسم ربك العظيم .)

القسم الثالث : مناسبة افتتاح السورة لمقاصدها : فسورة الإسراء افتتحت بالتسبيح بقوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ..) وسورة الكهف وهي تالية لها في الترتيب افتتحت بالحمد ، بقوله تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا).قال ابن الزملكاني : (إن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وتكذيبه تكذيب لله سبحانه وتعالى ، أتى بـ (سبحان) لتنزيه الله تعالى عما نسب إلى نبيه من الكذب وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف ، وتأخر الوحي ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن نبيه ، ولا عن المؤمنين ، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب ، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة) .

أمثال القرآن :

تعريف المثل:

المثل لغة : "الميم، والثاء، واللام، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مِثْلُ هذا، أي: نظيره" ، "المثَل، والمِثْل، والمثيل؛ كالشبه، والشبه، والشبيه، لفظًا

ومعنًى، والجمع أمثال ، وقد يستعمل المثل -بكسر الميم- عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني، أي معنى كان" .

والمثل: قول محكي يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال من قيل لأجله، أي تشبيه مضربه بمورده، كقولهم: (قطعت جهيزة قول كل خطيب) ، وذهب علماء البيان في تعريف المثل إلى أنه المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة حتى فشا استعماله، وأصله الاستعارة التمثيلية .

أمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، كما لا يستقيم حملها على أنها تشبيه مضرب بمورد فهي ليست أقوالا، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند البيانين، لأن منها ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله.

لذا نخلص إلى ضابط أليق بتعريف المثل القرآني : (فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة، سواء أكانت تشبيها أم قولا مرسلا) ، أو (هي تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء ورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه، أم بطريق الكناية) .

انواع الأمثال في القرآن:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

١- الأمثال المصرحة.

٢- والأمثال الكامنة.

٣- والأمثال المرسلة.

النوع الأول: الأمثال المصرَّحة: وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن منها : قوله تعالى في حق المنافقين: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ، أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلًا ناريًا في قوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} لما في النار من مادة النور، ومثلًا مائيًا في قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} .. لما في الماء من مادة

الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمنًا لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد نارًا للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديًّا بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر نوري في قلوبهم، فذهب الله به في النار من الإضاءة: {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} وأبقى ما فيها من الإحراق، وهذا مثلهم الناري ، وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وأغمض عينيه خوفًا من صاعقة تصيبه؛ لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

النوع الثاني من الأمثال : الأمثال الكامنة – وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز: يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١–ما في معنى قولهم: "خير الأمور الوسط": مثل قوله تعالى في البقرة: {لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} ، قوله تعالى في النفقة: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} .

٢– ما في معنى قولهم: "ليس الخبر كالمعاينة":

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: {قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}.

٣– ما في معنى قولهم: "كما تدين تُدان": قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}.

٤– ما في معنى: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين": قوله تعالى على لسان يعقوب: {قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ} .

النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن: وهي جمل أرسلت إرسالًا من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال ، ومن أمثلة ذلك :{الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ} ، {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} ، {قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} ، {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} ، {لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ} ، {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} .

فوائد الأمثال:

١– الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلًا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء

من الثواب، فقال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا} .

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر كقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات الآنفة الذكر.

٤- ويضرب المثل للترغيب في الممثَّل حيث يكون الممثَّل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلًا لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} .

٥- ويضرب المثل للتنكير حيث يكون الممثَّل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: {وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ} .

٦- ويضرب المثل لمدح الممثَّل كقوله تعالى في الصحابة: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} . وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلًا. ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم. وامتلأت القلوب إعجابًا بعظمتهم.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للمثَّل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلًا لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحدر في الدنايا منغمسًا. فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} .

٨- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة ، قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} . وقال: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} ، وضربها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديثه،

واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم .

أقسام القرآن :

أ- **تعريفه:** أقسام القرآن مفرده قسم والقسم في اللغة: اليمين بالله تعالى، ومن معاني اليمين القوة .

ويعرّف القسم أو اليمين بأنه: ربط النفس- بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه- بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادا. وسمي الحلف يمينا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

ب- **صيغته:** الصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل (أقسم) أو (أحلف) متعديا بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ [النحل: ٣٨] فأجزاء صيغة القسم ثلاثة: ١ - الفعل الذي يتعدى بالباء. ٢ - والمقسم به. ٣ - والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة، كقوله تعالى: وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى [الليل: ١]، وبالتاء في لفظ الجلالة، كقوله تعالى: وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ [الأنبياء: ٥٧] وهذا قليل، أما الواو فكثيرة.

أنواع القسم :

للقسم نوعان: ١- ظاهر مثل قوله: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ} وقوله تعالى:{ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ} .

٢- مضمر: والمضمر، إما أن تدل عليه اللام مثل قوله تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وإما أن يدل عليه المعنى ، وذلك قول الله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها وتقديره: (والله). بعد حرف الواو.

ج- أغراض القسم في القرآن:

١ – تحقيق الخبر وتوكيده، ليكون أوقع في التلقي وأرجى للقبول، كقوله تعالى: وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [يونس: ٥٣]. وقوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [الحجر: ٩٢].

٢ – بيان شرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته عند الله ورفعة منزلته لديه، كالقسم بحياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [الحجر: ٧٢] ، وكقوله تعالى مبينا شرف القرآن وقدره: وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ [ص: ١].

٣ – توجيه النظر إلى الآيات الكونية، والمشاهد الطبيعية، للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملا يبين مبلغ نعمتها، وأنها غير جديرة بالعبادة، وإنما الجدير بالعبادة هو خالقها، وذلك كالقسم بالسماء وبنائها، وبالنفس وخلقها، في قوله تعالى: وَالسَّماءِ وَما بَناها [الشمس: ٥] وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها [الشمس: ٧] وقال تعالى: وَالنَّجْمِ إِذا هَوى [النجم: ١] منبها بقوله: هوى- أي غاب وسقط- إلى أنه لا يجوز أن يعبد، لأنه مخلوق وعرضة للغيبة والزوال ، ونقل السيوطي في كتابه (الإتقان) عن أبي القاسم القشيري أنه قال: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله تعالى: وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [التين: ٢ – ٣] والمنفعة كقوله تعالى: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ [التين: ١] .

د- المقسم به في القرآن:

١ – أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في خمسة مواضع: في قوله: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ [مريم: ٦٨] وقوله: فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [الحجر: ٩٢] وقوله: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ [النساء: ٦٥] فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ [المعارج: ٤٠] .

٢- وأقسم تعالى فيما بقي من القرآن بمخلوقاته، كقوله: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَالصَّافَّاتِ وَالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحى ، فإن قيل: كيف أقسم الله بالخلق، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟ أجيب بأوجه:

أ- أنه على حذف مضاف، أي ورب التين، ورب الشمس ...

ب- إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.

ج- إن الأقسام إنما تكون بما يعظم المقسم أو يجلّه وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع ، وقد نقل السيوطي عن ابن أبي الإصبع أنه قال: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» ، وعن الحسن قال: إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله .

مبهمات القرآن :

ما هو المبهم :

المبهم- كما في «المعجم الوسيط»: هو ما يصعب على الحاسة إدراكه إن كان محسوسا، وعلى الفهم إن كان معقولا. والمبهم من الأشياء: الخالص الذى لا شية فيه تميزه. والمبهم من الأجسام: المصمت، ومن الكلام: الغامض لا يتحدد المقصود منه ، والمبهم من الظروف: ما ليس له حدود تحصره، مثل: فوق، وتحت، وأمام، وخلف.

المبهم في كتاب الله :

والمبهم في كتاب الله- تعالى-: هو ما خفي اسمه أو رسمه أو وصفه أو زمانه أو مكانه ونحو ذلك مما خفيت آثاره، أو جهلت أحواله لسبب من الأسباب الجلية أو الخفية، سواء احتاج المكلفون إلى معرفته بالبحث عن الوسائل التي تزيل خفاءه، وتدفع إشكاله، أم لم يحتاجوا إلى ذلك.

فالمبهمات في القرآن- على الجملة- نوعان:

١ - نوع ضرب الله عن ذكره صفحا لعدم تعلق التكليف به؛ لخلوه من الفائدة، كمعرفة بقرة بنى إسرائيل التي أمروا بذبحها، فلا ينبغي أن نسأل عن حجمها ولونها، وهل هي عاملة أم غير عاملة؛ فالبحث عن ذلك تكلف لا طائل تحته، بل هو تنطع يدل على فساد العقل والطبع، وسوء الأدب مع الله- عز وجل- ومع كلامه المنزل.

وهذا ما فعله بنو إسرائيل مع نبيهم موسى- عليه السلام- فقد أمرهم الله على لسان نبيه أن يذبحوا بقرة- أيّ بقرة- ليضربوا بها القتيل ليعلموا من قتله، ولو ذبحوا أي بقرة لتحقق المطلوب ولكنهم سألوه عن سنّها ولونها وعملها، فشددوا على أنفسهم

فشدد الله عليهم؛ فكلفوا شراء بقرة بملء جلدها ذهبا كما جاء في الأثر، فذبحوها وما كادوا يفعلون.

٢ – ونوع أبهمه الله لأسباب كثيرة إليك أهمها:

(أ) أن يكون المبهم في موضع استغنى ببيانه في موضع آخر، كما في قوله تعالى: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ الفاتحة: (٤). فإنه مبهم على الجملة، بينه الله بشيء من التفصيل في قوله– جل وعلا– في سورة الانفطار (١٧ – ١٩): وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) . وقوله: صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بينه الله بقوله في سورة النساء: ٦٩: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ.

(ب) أن يكون المبهم معينا باشتهاره عند المخاطبين بأي طريقة من طرق الاشتهار. فقد أخفى اسم حواء في القرآن لاشتهاره بين الناس قديما وحديثا، فوصفت بوصف يحدد صلتها بآدم– عليه السلام– ومصيرها معه فقال– جل وعلا– في سورة البقرة: وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ.

(ج) قد يبهم الاسم بقصد الستر عليه؛ ليكون أبلغ في استعطافه وإظهار منّة الله عليه، وهذا غالب ما جاء في القرآن.

(د) وقد يكون إبهامه لهوانه على الله وعلى الناس.

(هـ) وقد يكون إبهامه لأن أمثاله في الناس كثير، فيكون إبهامه مجرد مثل يذكر فيكشف عن طبع أو وضع معين يعرف بالقرائن الظاهرة فيحاكيه الناس فيه إن كان محمودا، ويتقونه إن كان مذموماً ، وقد ضرب الزركشى فى «البرهان» أمثلة كثيرة لهذا النوع؛ معتمدا فى ذلك على أسباب النزول ، كقوله تعالى: {أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ البقرة } قيل: هو مالك بن الصّيف ، يروى ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق، والقرطبىّ فى تفسيره: أن مالك بن الصيف حين بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد الله إليهم فيه قال: والله ما عهد إلينا فى محمد عهد، وما أخذ له علينا من ميثاق؛ فأنزل الله فيه: أو َكُلَّما عاهَدُوا عَهْداً.

(و) أن يكون المبهم سهلا فى إدراكه لا يحتاج إلى إعمال فكر وإنعام نظر، فيكون ذكره- حينئذ- عبئا على الأسلوب من جهة وعدم ثقة فى مدارك العقول من جهة أخرى ، والقرآن من شأنه أن يخاطب العقول الواعية، ويدربها على التأمل والنظر وإدراك الحقائق بالقرائن المتاحة؛ كالنظر في القرآن نفسه وفى السنة النبوية، وفى التاريخ القديم، وفى عادات الناس وأحوالهم. وغير ذلك مما يحمل المعاني على محمل يزيل خفاءها ويضعها في مواضعها.

(ز) ولا يخفى أن وجود المبهم في القرآن الكريم يدرب الذهن على كشف خفائه وإزالة إشكاله، ومعرفة أسراره القريبة والبعيدة بقدر الطاقة البشرية .

(ح) وهناك سبب وجيه لا ينبغي أن يفوتني ذكره وهو رعاية التناسب بين ما يذكر هنا وهناك ، ومن أمثلة ذلك: ما جاء في قصة شعيب- عليه السلام- فإنه حين أخبر عن مدين ذكر أن شعيبا أخوهم فقال: وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً، وحين أخبر عن أصحاب الأيكة وهم أهل مدين لم يقل: أخاهم! والحكمة فيه: أنه لما عرّفهم بالنسب، وهو أخوهم في ذلك النسب، ذكره، ولما عرّفهم بالأيكة التي أصابهم فيها العذاب لم يقل: أخاهم؛ حيث أخرجه عنهم.

وقد تتبع الإمام السيوطي هذه المبهمات في القرآن الكريم فصنفها إلى مبهمات في أفراد الإنسان والملائكة والجان والأقوام والقبائل والحيوان والأمكنة والأزمنة، وما إلى ذلك ، وقد رتبة على ترتيب آي القرآن في فصل سماه «ذكر آيات المبهمات» تحت النوع السبعون من كتاب «الإتقان» ، واعتمد فيه على النقل المجرد، وفيه من الأقوال ما صح سنده وما لم يصح، والعهدة عليه فيما نقل، وسنذكر هنا شيئا من المبهمات فوق ما ذكرناه من قبل؛ تتمة للفائدة؛ اعتمادا على ما نقله المفسرون والمحدّثون وغيرهم ممن عنى بذكرها منها :

١-في القرآن أفراد من الرجال ذكرهم الله بأوصافهم تعظيما لشأنهم وتقديرا لجهودهم وأبهم أسماءهم؛ إمّا لشهرتهم عند نزول الآية؛ وإمّا لتدريب الذهن على معرفتهم عن طريق أوصافهم لمحاكاتهم في تحصيل تلك الأوصاف إن استطاعوا أو الاقتداء بهم بقدر طاقاتهم، وتعطير أفواههم بالثناء عليهم والدعاء لهم: من ذلك قوله تعالى: وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ النور: ٢٢.قال ابن كثير في تفسيره نقلا عن البخاري وابن جرير: هو الصديق أبو بكر – رضى الله عنه- حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال في عائشة ما قال. فلما تليت عليه هذه الآية رجع فيما عزم عليه وكفّر عن يمينه.

٢-وممن عظم الله شأنه بالوصف أيضا صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، ففيه نزل قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ البقرة: ٢٠٧ ، وذلك أنه لما أراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله فتركه لهم ابتغاء مرضات الله، فلما وفد إلى المدينة تلقاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم وهو يقول: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى» وهذه الآية تتناول بعمومها كل من كان قد اشترى دينه بدنياه، وباع نفسه لله.

٣-وفى زيد بن حارثة نزل قوله- عز وجل: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ الأحزاب: ٣٧. فقد أبهم اسمه في أول الآية؛ تعظيما له؛ وتقديرا لشأنه؛ وتذكيرا له بالإنعام عليه، ثم صرح باسمه مبالغة في تكريمه، وهو الصحابي الوحيد الذى ذكر اسمه صراحة في القرآن الكريم.

وقد نزلت هذه الآية في قصة زواجه من زينب بنت جحش- رضى الله عنها-.

٤-وممن عظّم الله شأنه بالوصف وأبهم اسمه للأسباب التي ذكرناها، العبد الصالح الذى أشار إليه- رب العزة- في قصة موسى معه بقوله: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا الكهف ٦٥. وأرانا الحق- جل شأنه- من آياته التي أجراها على يديه عجبا قال جمهور المفسرين والمحدّثين: إنه الخضر يروون ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وهذا لقبه الذى اشتهر به واسمه بليا بن ملكان، قاله غير واحد من المفسرين ، وقد أبهم الله اسمه ولقبه لاشتهار قصته عند أهل الكتاب وغيرهم ممن قرأ كتبهم ، ووصفه يغنى عن اسمه ولقبه، فهو من الذين خصّهم الله بالكرامات، ووصفه بالعبودية الخالصة، وعمّه برحمة واسعة وعلم لدنّى تلقاه منه- جل شأنه- ببصيرة .

٥- وممن أبهم الله اسمه واكتفى بما ساقه في شأنه مع قومه حبيب النّجار كما جاء في كتب التفسير ، وفيه نزل قوله تعالى: وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى إلى

قوله- جل شأنه: قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ يس: ٢٠ - ٢٧ ، ومثله مؤمن آل فرعون، فقد قص الله علينا من أمره في سورة غافر ما فيه عظة وعبرة لكل مؤمن يتصدى للدعوة، وينصر الحق بما أوتى من علم وحكمة ، وقصته تبدأ من قوله تعالى: وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وتنتهى بقوله- جل شأنه: فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا غافر: ٢٨ - ٤٥. ومع هذا لم يذكر اسمه، فالأسماء مجرد أعلام على أصحابها لا تدل على شيء وراء ذلك- في الغالب، وذكر الاسم مع الأوصاف العظيمة لا يلتفت إليه العقلاء، وإن غاب عنهم لا يسألون عنه إلا أن المفسرين أولعوا بالبحث عنها من باب الترف العلمي، وهو أمر لا يحمد ولا يذم .

٦- وممن عظّم الله شأنهن من النساء: حواء ، فقد أبهم الله اسمها لاشتهارها في الخليقة- كما أشرنا من قبل عند ذكر أسباب الإبهام ، واكتفى- جل شأنه- بوصفها فى سياق الحديث عن آدم- عليه السلام ، قال تعالى: وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ البقرة: ٣٥ وقال جل شأنه يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ الأعراف: ١٩. وقال- عز شأنه: فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى طه: ١١٧.

٧- وممن أبهم الله اسمها زينب بنت جحش، سترا عليها وفى الستر تعظيم لشأنها.

قال- جل شأنه: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها الأحزاب: ٣٧ وصرح باسم زوجها تعظيما له، ومبالغة فى التنصيص على حرمة التبني وإباحة زوج المتبنّى بعد أن كانت محرمة في الجاهلية وفى صدر الإسلام.

٨- أهل البيت، عظم الله شأنهم وأبهم أسماءهم إما للعلم بهم، أو لأن كلمة أهل فى اللغة تعنى عندهم طائفة مخصوصة من ذوى القربى، لا يدخل فيهم من ليس منهم، والقرآن نزل بلغتهم، فأبهم أفراد الأهل اعتمادا على أفهامهم ، قال- جل شأنه- في سورة الأحزاب ٣٣: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً قال السيوطي: هم: على، وفاطمة، والحسن، والحسين، وهو أصح الأقوال.

٩- وممن حقّر الله شأنهم من الرجال: من قال الله فيه: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ البقرة: ٢٠٤ قال السيوطي في «الإتقان»: هو الأخنس ابن شريق، وهو قول السدى، وقيل: هو عام في المنافقين، قال ابن كثير: وهو الصحيح ، أقول: ربما كان الأخنس هذا أعذبهم لسانا في الباطل، وأشدهم نفاقا فخص بالذكر من دونهم في كتب التفسير والسير.
من ورد ذكره مبهما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ البقرة: ٢٥٨. قال أكثر المفسرين: هو نمرود بن كنعان، وكان ملك بابل كما يذكر ابن كثير في تفسيره.

١٠- ومما أبهم الله ذكره من الأماكن : ما جاء في قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها البقرة: ٢٥٩ ، قال ابن كثير في «تفسيره»: هي بيت المقدس. أما الذى مر عليها فقد اختلفوا فيه، وأشهر الأقوال أنه العزير.

أوجه خطاب القرآن الكريم :

أوجه الخطاب في القرآن أو وجوه الخطاب في القرآن أو وجوه خطابات القرآن في علوم القرآن بمعنى: الأوجه المتنوعة في خطاب القرآن، والقرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على رسوله بوحي جلي، وقد أنزله الله بلسان عربي مبين أي: واضح؛ حتى يتمكن المخاطب من فهمه، فهو يخاطب المتهيء للفهم، ووجوه الخطاب في القرآن متعددة من حيث الأساليب المتنوعة وما يراد منها، فقد يكون خطابا للرسول في مثل:﴿يا أيها المدثر﴾، ﴿يا أيها المزمل﴾، ﴿يا أيها الرسول﴾، ﴿يا أيها النبي﴾، وقد يكون عاما مثل: ﴿يا أيها الناس﴾، أو لخصوص المؤمنين مثل: ﴿يا أيها الذين ءامنوا﴾، وقد يكون للتعظيم أو الزجر أو غير ذلك، وقد يكون عاما أريد به الخصوص أو العكس، وهذه الأمثلة للتوضيح لا للحصر، قال السيوطي في كتاب الإتقان في علوم القرآن: قال ابن الجوزي في كتابه النفيس: الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجها، وقال غيره: على أكثر من ثلاثين وجها، ثم ذكر هذه الوجوه وقرنها بالأمثلة. وقال بدر الدين الزركشي: «يأتي على نحو أربعين وجها».

وجوه مخاطباته:

النوع الحادي والخمسون من أنواع علوم القرآن في وجوه مخاطباته، قال السيوطي: قال ابن الجوزي في كتابه النفيس: الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجها، وقال غيره: على أكثر من ثلاثين وجها، خطاب العام والمراد به العموم، خطاب الخاص والمراد به الخصوص، خطاب العام والمراد به الخصوص، خطاب الخاص والمراد العموم، خطاب الجنس، خطاب النوع، خطاب العين، خطاب المدح، خطاب الذم، خطاب الكرامة، خطاب الإهانة، خطاب التهكم، خطاب الجمع بلفظ الواحد، خطاب الواحد بلفظ الجمع، خطاب الواحد بلفظ الأثنين، خطاب الأثنين بلفظ واحد، خطاب الأثنين بلفظ الجمع، خطاب الجمع بلفظ الأثنين، خطاب الجمع بعد الواحد، خطاب الواحد بعد الجمع، خطاب الأثنين بعد الواحد، خطاب الواحد بعد الأثنين، خطاب العين والمراد به الغير، خطاب الغير والمراد به العين، الخطاب العام الذي لم يقصد به مخاطب معين، خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره، خطاب التلوين وهو

الالتفات، خطاب الجمادات خطاب من يعقل، خطاب التهييج، خطاب التحنن والاستعطاف، خطاب التحبب، خطاب التعجيز، خطاب التشريف، خطاب المعدوم تبعا لموجود.

خطاب العام والمراد به العموم: الوجه الأول من وجوه خطاب القرآن: خطاب العام والمراد به العموم مثل قوله تعالى :﴿الله الذي خلقكم﴾ .

خطاب الخاص والمراد به الخصوص : الوجه الثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص مثل قوله تعالى :﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾،﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾،

خطاب العام والمراد به الخصوص: الوجه الثالث: خطاب العام والمراد به الخصوص مثل قوله تعالى :﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾، فالخطاب عام لكل الناس، لكن المراد به المتهيئون لفهم الخطاب، فلم يدخل فيه الأطفال والمجانين.

خطاب الخاص والمراد العموم: الوجه الرابع: خطاب الخاص والمراد العموم مثل قوله تعالى :﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾، افتتح الخطاب بالنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد سائر من يملك الطلاق، وقوله تعالى :﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك..﴾الآية، قال أبو بكر الصيرفي: كان ابتداء الخطاب له، فلما قال في الموهوبة :﴿خالصة لك﴾، علم أن ما قبلها له ولغيره.

خطاب الجنس: الوجه الخامس: خطاب الجنس مثل قوله تعالى :﴿يا أيها النبي﴾؛ فلفظ النبي جنس يشمل مجموع الأنبياء.

خطاب النوع: الوجه السادس: خطاب النوع نحو :﴿يا بني إسرائيل..﴾، بنوا إسرائيل أولاد يعقوب عليه السلام، وخطاب النوع تدخل فيه جزئياته، ولا تدخل فيه الأنواع الأخرى.

خطاب العين: الوجه السابع: خطاب العين نحو قوله تعالى :﴿وقلنا يا آدم اسكن﴾، ونحو :﴿يا نوح اهبط بسلام منا وبركات..﴾، ونحو :﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾، ونحو :﴿يا موسى لا تخف﴾، وقوله تعالى :﴿يا عيسى إني متوفيك﴾، ولم يقع في القرآن الخطاب بيا محمد بل ﴿يا أيها النبي﴾، ﴿يا أيها الرسول﴾؛ تعظيما له وتشريفا وتخصيصا بذلك عما سواه، وتعليما للمؤمنين أن لا ينادوه باسمه.

خطاب المدح: الوجه الثامن: خطاب المدح نحو قوله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، ولهذا وقع الخطاب بأهل المدينة في قوله تعالى :﴿والذين آمنوا وهاجروا﴾، أخرج ابن أبي حاتم عن خيثمة قال: ما تقرؤون في القرآن :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنه في التوراة: يا أيها المساكين، وأخرج البيهقي وأبو عبيد وغيرهما عن ابن مسعود قال: إذا سمعت الله يقول :﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأوعها سمعك فإنه خير يؤمر به أو شر ينهى عنه.

خطاب الذم :الوجه التاسع: خطاب الذم نحو قوله تعالى :﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾، ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، ولتضمنه الإهانة لم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين، وأكثر الخطاب بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ على المواجهة، وفي جانب الكفار جيء بلفظ الغيبة إعراضا عنهم كقوله :﴿إن الذين كفروا﴾ ، ﴿قل للذين كفروا﴾ .

خطاب الكرامة : الوجه العاشر: خطاب الكرامة كقوله تعالى :﴿يا أيها النبي﴾ ﴿يا أيها الرسول﴾، قال بعضهم: ونجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه ففي الأمر بالتشريع العام :﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾، وفي مقام الخاص ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ ، قال: وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام لكن مع قرينة إرادة العموم كقوله تعالى :﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء..﴾، ولم يقل: طلقت.

خطاب الإهانة : الوجه الحادي عشر: خطاب الإهانة نحو قوله تعالى :﴿فإنك رجيم﴾، ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ .

خطاب التهكم : الثاني عشر: خطاب التهكم نحو :﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

خطاب الجمع بلفظ الواحد : الوجه الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد نحو قوله تعالى :﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ .

خطاب الواحد بلفظ الجمع: الوجه الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع نحو قوله تعالى :﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ ، إلى قوله :﴿فذرهم في غمرتهم﴾ ، فهو خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده؛ إذ لا نبي معه ولا بعده، وكذا قوله :﴿وإن عاقبتم فعاقبوا..﴾ الآية ، خطاب له صلى الله عليه وسلم وحده بدليل قوله :﴿واصبر

وما صبرك إلا بالله..﴾ الآية، وكذا قوله :﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا..﴾ ، بدليل قوله :﴿قل فأتوا﴾، وجعل منه بعضهم :﴿قال رب ارجعون﴾ ، أي: ارجعني، وقيل: رب خطاب له تعالى، وارجعون للملائكة ، وقال السهيلي: هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب فاختلط فلا يدري ما يقول من الشطط، وقد اعتاد أمرا يقوله في الحياة من رد الأمر إلى المخلوقين .

خطاب الواحد بلفظ الأثنين : الوجه الخامس عشر: خطاب الواحد بلفظ الأثنين نحو :﴿ألقيا في جهنم﴾ ، والخطاب لمالك خازن النار، وقيل: لخزنة النار والزبانية فيكون من خطاب الجمع بلفظ الاثنين، وقيل: للملكين الموكلين في قوله :﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ ، فيكون على الأصل، وجعل المهدوي من هذا النوع :﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ ، قال: الخطاب لموسى وحده؛ لأنه الداعي، وقيل: لهما لأن هارون أمن على دعائه والمؤمن أحد الداعيين.

خطاب الأثنين بلفظ واحد : الوجه السادس عشر: خطاب الأثنين بلفظ واحد كقوله :﴿فمن ربكما يا موسى﴾، أي: ويا هارون ، وفيه وجهان: أحدهما أنه أفرده بالنداء لإدلاله عليه بالتربية، والآخر: لأنه صاحب الرسالة والآيات، وهارون تبع له، ذكره ابن عطية، وذكر في الكشاف آخر: وهو أن هارون لما كان أفصح من موسى نكب فرعون عن خطابه حذرا من لسانه، ومثله :﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ ، قال ابن عطية: أفرده بالشقاء لأنه المخاطب أولا والمقصود في الكلام، وقيل: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في جانب الرجال، وقيل: إغضاء عن ذكر المرأة كما قيل: من الكرم ستر الحرم.

خطاب الأثنين بلفظ الجمع : السابع عشر: خطاب الأثنين بلفظ الجمع كقوله :﴿وقلنا يا آدم اسكن﴾ .

خطاب الجمع بلفظ الأثنين: الثامن عشر: خطاب الجمع بلفظ الأثنين كما تقدم في :﴿ألقيا في جهنم..﴾ .

خطاب الجمع بعد الواحد : التاسع عشر: خطاب الجمع بعد الواحد كقوله :﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم

شهودا..﴾ الآية، قال ابن الأنباري: جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومثله :﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ .

خطاب الواحد بعد الجمع : العشرون: عكسه وهو خطاب الواحد بعد الجمع نحو :﴿وأقيموا الصلاة﴾ ﴿وبشر المؤمنين﴾ .

خطاب الأثنين بعد الواحد : الحادي والعشرون: خطاب الأثنين بعد الواحد نحو :﴿أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ .

خطاب الواحد بعد الأثنين : .الوجه الثاني والعشرون: عكسه خطاب الواحد بعد الأثنين نحو :﴿فمن ربكما يا موسى﴾ .

خطاب العين والمراد به الغير : الوجه الثالث والعشرون: خطاب العين والمراد به الغير نحو :﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين﴾، الخطاب له والمراد أمته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقيا وحاشاه من طاعة الكفار، ومنه :﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب..﴾ الآية، حاشاه صلى الله عليه وسلم من الشك، وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكفار ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: لم يشك صلى الله عليه وسلم ولم يسأل، ومثله :﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا..﴾ الآية، ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ ، وأنحاء ذلك.

الوجه الرابع والعشرون: خطاب الغير والمراد به العين نحو قوله تعالى :﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ .

الخطاب العام الذي لم يقصد به مخاطب معين : الوجه الخامس والعشرون: الخطاب العام الذي لم يقصد به مخاطب معين مثل قوله تعالى :﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض..﴾ ، وقوله تعالى :﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ، وقوله تعالى :﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم..﴾ ، لم يقصد بذلك خطاب معين بل كل أحد، وأخرج في صورة الخطاب لقصد العموم، يريد أن حالهم تناهت في الظهور بحيث لا يختص بها راء دون راء، بل كل من أمكن منه الرؤية داخل في ذلك الخطاب.

خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره : الوجه السادس والعشرون: خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره مثل قوله تعالى :﴿فإن لم يستجيبوا لكم..﴾ ، خوطب به النبي

صلى الله عليه وسلم ثم قال للكفار :﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ ، بدليل :﴿فهل أنتم مسلمون﴾ ، ومنه قوله تعالى :﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ ، إلى قوله :﴿لتؤمنوا بالله ورسوله..﴾، عند من قرأ بالفوقية.

خطاب التلوين وهو الالتفات : الوجه السابع والعشرون: خطاب التلوين وهو الالتفات في الخطاب الذي يكون فيه الانتقال من لون لآخر، مثل قوله تعالى :﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾، فالخطاب المذكور أولا خطاب للمثنى في قوله تعالى :﴿فمن ربكما﴾، وهو خطاب لموسى وهارون، ثم جرى الالتفات من خطاب المثنى إلى خطاب المفرد في قوله تعالى :﴿يا موسى﴾، وهو التفات من خطاب المثنى إلى المفرد، وقد يكون بغير ذلك من أنواع التلوين في الخطاب.

خطاب الجمادات خطاب من يعقل : الوجه الثامن والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل مثل قوله تعالى :﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها..﴾، حيث خاطب السموات والأرض بخطاب العقلاء.

خطاب التهييج : الوجه التاسع والعشرون: خطاب التهييج مثل قوله تعالى :﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ .

خطاب التحنن والاستعطاف : الوجه الثلاثون: خطاب التحنن والاستعطاف مثل قوله تعالى :﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا..﴾ فهو خطاب من الله لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي، حيث كان وجه مخاطبتهم بالتحنن عليهم والاستعطاف رحمة بهم حتى يتوبوا إليه.

خطاب التحبب : الوجه الحادي والثلاثون: خطاب التحبب نحو :﴿يا أبت لم تعبد..﴾ ، في خطاب إبراهيم عليه السلام، ومثل :﴿يا بني إنها إن تك مثقال..﴾، وهو خطاب لقمان لابنه، ومثل :﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي﴾، وهو حكاية خطا بهارون لموسى عليهما السلام.

خطاب التعجيز :الوجه الثاني والثلاثون: خطاب التعجيز، وهو الذي يكون الخطاب فيه على وجه تعجيز المخاطب، مثل قوله تعالى :﴿فأتوا بسورة من مثله..﴾، وكقوله تعالى :﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

خطاب التشريف : الوجه الثالث والثلاثون: خطاب التشريف وهو كل ما في القرآن مخاطبة بـ ﴿قل﴾ فإنه تشريف منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة.

خطاب المعدوم تبعا لموجود : خطاب المعدوم أي: غير الموجود بمعنى: ما كان في حال العدم قبل أن يخرج إلى الوجود، وإنما يصح هذا الخطاب تبعا لموجود، مثل قوله تعالى :﴿يا بني آدم..﴾، وهو خطاب لمن هو موجود من بني آدم من أهل ذلك الزمان، وخطاب لكل من بعدهم ممن لم يوجد، فالخطاب في هذه الآية للموجود من جهة، وللمعدوم تبعا للموجود من جهة أخرى. وهذا هو الخطاب الرابع والثلاثون حسبما ذكره السيوطي.

١٤٤٦هـ   ٢٠٢٥ م

المصادر والمراجع :

١) الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) .

٢) علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم (رحمة الله).

٣) الوافي في تاريخ القرآن وعلومه، أ.د عامر عمران الخفاجي .

٤) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) .